



٢٠٢٠

٢#

بحث تاريخي عن

العلاقات اليمنية المكية من خلال المصادر اليمنية

في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي

يُقدم للمعهد الأمريكي للدراسات اليمنية

للدكتورة/ أمة الملك إسماعيل قاسم الثور

أستاذ مشارك بجامعة صنعاء

كلية الآداب/ قسم التاريخ

ديسمبر 2018م

المقدمة:

اشتهرت مكة المكرمة بمكانتها المقدسة لدى المسلمين عامة والعرب خاصة وتأثر الحجاج والمعتمرين الذين كانوا يفدون إليها سنوياً بثقافتها وتراثها الإسلامي والعلمي والثقافي الغزير، وساعد على ذلك تنوع الوافدين إليها بغرض الحج والزيارة والتبادل الثقافي بين علمائها ومثقفها. وكان للعلاقات اليمنية المكية في العصر الحديث دور في ربط أو اصر العلاقة العربية الإسلامية بين البلدين في عهد الدولة القاسمية، ونتيجة لعدم وجود عوائق حدودية بين الأقطار العربية، كان محمل الحاج يرحل إلى بيت الله الحرام لأداء مشاعر الحج والعمرة وزيارة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله وسلم دون قيود أو حواجز، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تأصلت العلاقات بين الحجاز واليمن في العصر الحديث بالتبادل الثقافي والاجتماعي وأصبحت مواسم الحج من أهم المواسم والأعياد السنوية لليمنيين كافة في عهد الدولة القاسمية وفي كل العصور.

ولذا ومن خلال هذا الموضوع وهو العلاقات المكية اليمنية في عهد الدولة القاسمية في اليمن والأشرف في الحجاز، كان لا بد من إثبات أو اصر تلك العلاقات ونموها من فترة زمنية لأخرى تبعاً للتأثير السياسي في الحجاز من قبل الأشرف والسلطنة العثمانية.

وتم إبراز العلاقة الأخوية بين الأشرف والقاسميين وتبادل الرسائل والمنافع بين جميع الأطراف، وكان للتبادل الثقافي دوراً في تأصيل المنفعة العلمية من علماء الحرمين الشريفين وبين علماء وفقهاء اليمن.

ومن خلال تبادل الزيارات ومجاورة العلماء في مكة والحرص على تلقي كافة علوم الطلب في ذلك العصر، والحصول على إجازات علمية وتبادلها بين العلماء، وتم تبادل الكتب والأسفار العلمية والدينية بين اليمن وعلماء مكة المكرمة، ناهيك عن الهجرات والرحلات الدينية التي قام بها علماء اليمن إلى بيت الله الحرام للمجاورة والإلتقاء بالعلماء ورجال العلم المعروفين في ذلك العصر.

موضوع البحث هذا تم تقسيمه إلى تمهيد وثلاثة مواضيع بحثية عن أو اصر تلك العلاقات وجذورها.

التمهيد يتم فيه شرح الوضع السياسي في اليمن في بداية تأسيس الدولة القاسمية في عهد أولاد القاسم بن محمد ودورهم في هذا البناء.

الموضوع الأول: يتناول رحلات الحج واهتمام حكام الدولة القاسمية بهذا المحمل إلى مكة المكرمة كموسم ديني سنوي أسوة بباقي الدول العربية والإسلامية.

الموضوع الثاني: تناول علاقة الأشرف بأئمة الدولة القاسمية، تلك العلاقة التي كان لها دور في تبادل المنفعة السياسية من خلال ما ورد في المخطوطات والمصادر اليمنية.

أما الموضوع الثالث: فقد تناول الدور الثقافي والاجتماعي الذي ربط بين مكة واليمن في هذه المرحلة من تاريخ اليمن.

وبهذا تم إدراج وتوضيح فترة تاريخية محددة من فترات العلاقات اليمنية المكية في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي.

وتم تحديد هذه الفترة الزمنية لنطاق البحث نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية العامة التي يمر بها اليمن، وانعكاس ذلك على مفاصل الحياة العلمية والبحثية، تمثل ذلك في انقطاع الكهرباء وانقطاع المرتبات مما أدى إلى إغلاق دار المخطوطات والمكتبات العامة وتسرب الموظفين من أعمالهم الحكومية، إلى جانب المعاناة الاجتماعية والنفسية لسبل الحياة في ظل ظروف الحرب لكل اليمنيين.

كل ذلك أدى إلى صعوبة الحصول على المصادر الأصلية للبحث، لكن حب البحث العلمي ومحاولة إبراز تاريخ اليمن من خلال العلاقات اليمنية المكية، وتدرج مراحلها ونتائجها كان سبباً في إخراج هذا العمل التاريخي المتواضع.

وأسأل الله التوفيق والسداد..

د. أمة الملك الثور

صنعاء

ديسمبر 2018م

1 التمهيدي

اليمن في عهد الاستقلال الأول وحكم أئمة الدولة القاسمية، ودورهم في بناء الدولة المستقلة

سعى اليمن في مطلع القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي إلى الاستقلال عن حكم السلطنة العثمانية، وذلك من خلال الخوض في أحداث تاريخية طويلة كانت أحداثها تدور ثلاثاً وعشرين سنة من أحداث الثورة القاسمية بقيادة الإمام القاسم بن محمد (المتوفى سنة 1029هـ/1620م)، ثم تولى المؤيد محمد بن القاسم "الإبن" (المتوفى سنة 1054هـ/1644م)، حتى تم في عهدهم إخراج العثمانيين من اليمن سنة 1045هـ/1635م.

حرص المؤيد محمد بن القاسم على تأسيس الدولة القاسمية المستقلة بمساعدة وعون أخوته الحسن والحسين وأحمد، وكان لهم دور كبير في هذا التأسيس والبناء. ثم تولى المتوكل إسماعيل بن القاسم زمام الحكم بعد وفاة الإمام المؤيد محمد بن القاسم، بالرغم من نشوب معارضة وحدوث أحداث عسكرية عند تولي إسماعيل الحكم. اهتم الجميع وحرصوا على إقامة وبناء الدولة القاسمية المؤيدية المتوكلية المستقلة في تلك المرحلة من تاريخ اليمن.

تسلم الإمام المؤيد محمد زمام الإمامة وباشر في تسيير دفة أمور الحكم باقتدار وحكمة سياسية صادقة، وحرص على توظيف جُل أوقاته في تحصيل العلم والاهتمام بشئون الرعية والتقصي في إصلاح أحوال العامة والخاصة من الناس. وقد أطنب المؤرخون في سرد صفاته وقدرته على تحمل أعباء الحكم⁽¹⁾. كان الإمام القاسم يرى في إبنه محمداً الإقتدار والجدارة من أجل توحيد القوى السياسية، مع احتمال ظهور بعض المعارضين لإمامته.

قام الإمام المؤيد محمد بن القاسم بتنفيذ الأعمال اللازمة في إدارة شئون البلاد، وأجرى العديد من الإجراءات الإدارية والعسكرية، ووضع الخطط التوسعية في كل أقاليم اليمن، وحرص على تعيين أخوته وكبار العلماء والقادة في إدارة المدن وترتيب أوضاعها، وإصدار العديد من التوجيهات استعداداً للمرحلة القادمة من تحرير البلاد والحصول على الاستقلال ووضع الأسس الأولى لبناء الدولة القاسمية في اليمن⁽²⁾.

وقد حرص المؤيد محمد على التدقيق والتحري بجميع أمور الأقاليم الواقعة تحت نفوذه، وحاول التقريب بين وجهات النظر بين القبائل، فرخص لهم في الكلام، وتعهد التأكيد على تطبيق الشريعة الإسلامية، وشدد على الاهتمام بالعلماء وطلبة العلم، وتحري الإشراف على الهجر العلمية، وظهر جلياً مدى اهتمامه بتوسيع سياسته، وحرص على تطبيق السياسة الشورية، والتشاور مع رجالات عصره عند تنفيذ الأحكام وإصدار القرارات والتوجيهات للقائمين بشئون الأهالي، وشدد على أخوته ونوابه باتخاذ مبدأ الشورى قانوناً يومياً في إدارة أمور البلاد.

حارب المؤيد محمد بن القاسم وأخوته وكل اليمنيين الحكم العثماني، وكان للقوى اليمنية مواقف وأدوار عسكرية وسياسية وإدارية متعددة تمكنوا في نهاية المطاف من إخراجهم من اليمن سنة 1635هـ في عهد آخر والي عثماني ويدعى قانصوه باشا،

(1) أئمة الملك الثور: بناء الدولة القاسمية، ص28.

(2) أئمة الملك الثور: بناء الدولة القاسمية، ص34.

الذي قدم إلى اليمن في محاولة يائسة من قبل السلطة العثمانية من أجل تعزيز وتقوية الجيش العثماني في اليمن، لكن الأوضاع العسكرية كانت قد وصلت إلى الحد الذي لم يعد للجيش أي وسيلة للبقاء على أرض اليمن.

نجح اليمنيون كافة من توحيد قواهم وتمكنوا من حصار العثمانيين في المدن الساحلية في مدينة زبيد ومدينة المخاء، التي خاضت فيها قوات الإمام معارك حاسمة ضد الجيش العثماني بقيادة الحسن بن القاسم، حين أقام معسكره عند أسوار تلك المدن وأحكم حصار العثمانيين في داخلها.

تقدم العثمانيون بطلب هدنة سنة (1040هـ/1630م) من الجانب اليمني، محاولة أخيرة للتواصل مع السلطنة لكي ترسل لهم المدد العسكري، لكن كان قد وصل الحال بالسلطنة العثمانية إلى حد إهمال الشأن اليمني، وانشغال السلطان بأمور السلطنة الأخرى.

استغل اليمنيون تلك الهدنة من أجل ترتيب الأوضاع وحسب المشاكل التي نشبت بين القبائل، واستقبال أهالي والوفود، وحرص الإمام المؤيد وقادته على تقريب الشارد وتسهيل مرافق الصادر والوارد، وتعمير المدارس وتفقد شئون أمورها⁽³⁾. وحرص القادة ورجال الدولة على القيام بالإصلاحات وبناء المآثر العمرانية في فترة الهدنة، والإستعداد بتنظيم التدابير السياسية والعسكرية استعداداً للمرحلة التالية بعد انتهاء الهدنة مع الجانب العثماني⁽⁴⁾.

بذل العثمانيون محاولات يائسة من أجل تخفيف الحصار الذي فرض عليهم في تهامة وزبيد، والتحموا في معارك مع الجيش اليمني بقيادة الحسن بن القاسم في نجد قسيم (1039هـ/1628م)، ونجد مخيرب (1039هـ/1629م)، لكن تلك الجهود مُنيت بالفشل وانهزم الجيش العثماني في تلك المعارك، وتم إخراجهم من اليمن سنة (1045هـ/1635م)⁽⁵⁾.

الدولة اليمنية المستقلة:

نال اليمن استقلاله مبكراً عن الحكم العثماني وتحقق له ذلك بفضل جهود كافة اليمنيين، وتحت قيادة آل القاسم بزعامة الإمام المؤيد محمد بن القاسم، ومشاركة الحسن والحسين وأحمد أبناء الإمام القاسم، وشخصيات يمنية بارزة، وتحقق لهم الاستقلال الكامل عن الحكم العثماني.

نجح الإمام المؤيد محمد بن القاسم بكل اقتدار وخبرة سياسية فذة أن ينظم ويحدد الأدوار والقيادات لكل القادة والمشائخ، ومنح أخيه الحسن صلاحيات إدارية وسياسية واسعة، فجعله نائباً له في الأقاليم الوسطى والجنوبية إلى جانب المدن الساحلية التهامية.

وأصبح هؤلاء القادة يمثلون مراكز قوى في مناطق ومدن متفرقة من اليمن وعلى رأسهم الحسن والحسين وأحمد أبناء الإمام القاسم.

الحسن بن القاسم⁽⁶⁾:

(3) الجرزموزي: الجوهر، ق 219ب.

(4) أمة الملك الثور: بناء الدولة القاسمية، ص 13.

(5) للمزيد: أ.د. سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني؛ أمة الملك الثور: بناء الدولة القاسمية، يحيى بن الحسين: بهجة الزمن.

(6) (رمضان 996هـ - شوال 1048هـ/يونيو 1587م - فبراير 1638م).

كان للحسن بن القاسم دوراً كبيراً وبارزاً في بناء الدولة المستقلة، لما كان يحمل من قوة وصفات شخصية وقيادية أثرت إيجاباً في تدرج وقيام الدولة القاسمية المستقلة في ذلك العصر، وقد أثنى المؤرخون المعاصرون على الحسن بن القاسم⁽⁷⁾، فكان يحمل صفات الشجاعة والسخاء والإقدام مهاباً صارماً بين جنوده⁽⁸⁾.

هيأت الظروف التي مر بها الحسن بن القاسم على بروز قوة نفوذه وجمع حوله عدد من القادة والموالين له في المناطق الوسطى وفي زمار وأنس وما حولها، وأصبحت تحت إدارته وسلطته وكان مخولاً من قبل الإمام بتعيين الولاة والقضاة في زبيد والمخاء وموشج والحديدة وكمران وحيس وبيت الفقيه وغيرها من المدن التهامية الساحلية.

قام الحسن بن القاسم ببناء حصن الدامغ وبناء وتأسيس مدينة ضوران لتكون حاضرة جديدة تنافس مدينة شهاة مقر الإمامة القاسمية، وأصبحت مدينة ضوران مقراً للحاشية وأكابر القوم.

وظهر دور الشخصيات المتنفة ذات المراكز القوية في البلاد، بالرغم من كل ذلك كان الإمام المؤيد محمد يقوم بمراقبة الأعمال في البلاد، وظل يرأسل ويذكر القادة والقائمين على إدارة البلاد بأهمية الرجوع إليه فشدد على تنفيذ كثيراً من الوصايا والأوامر والنواهي التي شملت الإحسان للعلماء وطلبة العلم، وتوقير أصحاب البيوت القديمة، وكف أيدي الجند والحاشية عن التخطي وظلم الناس، وشدد على إقامة صلاة الجماعة وجمع الزكاة، والنظر في معاش الرعية، وتشجيع التجار والتجارة، وإزالة الرسوم الجائرة واستشارة أهل التجارب من العلماء وذوي الخبرة⁽⁹⁾.

كانت توجيهات الإمام المؤيد محمد لأخيه الحسن بن القاسم ملزمة من أجل بناء دولة مستقلة، ووضع قوانين منظمة لشئون البلاد، للحد من طموحات الحسن الواسعة والبعد عن الاستقلالية والإستنثار بإدارة المناطق الوسطى والجنوبية، والتذكير بدور الإمام المؤيد الإشرافي للبلاد.

سجل المؤرخون أعمال الحسن بن القاسم ودوره في بناء الدولة المستقلة، وشرحوا أعماله ومآثره العمرانية في بناء مدينة صنعاء، فقد كان راغباً في بعض الأوقات السكن فيها وإحيائها، فعمل على تشييد كثير من المباني والبيوت واستخرج غيل ماء بالقرب من الروضة، واهتم بتمديد وشق الطرقات خارج صنعاء وفي قرية معبر ومدينة ضوران، وحرص على تسهيل القوافل والمسافرين، وشيد سمسرة لنفس الغرض، وجاهد من أجل استصلاح الأراضي الزراعية وإحياء وغرس أنواع متعددة من الأشجار المثمرة في ضوران ومناطق متعددة وأودية محاذية، وعمر مدينة الغراس في عمران شمال صنعاء، واهتم بزراعة أوديتها وصوافيها، ومهد الطرق والنقيل المدرج إلى جهات المزارع، وشجع زراعة البن المثمر والتي بلغت حوالي مائة ألف غرسة⁽¹⁰⁾.

(7) له سيرة مفصلة في كتاب تاريخ دولة الترك (مخطوط)، دار المخطوطات، صنعاء.

(8) (الجرموزي: الجوهر، ق292؛ عيسى بن لطف الله: روح الروح، ج3، ق26؛ الشرفي: اللالي، ج3، ق649).

(9) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، تحقيق د.أمة الغفور الأمير، ص106.

(10) (الكبيسي؛ اللطائف، ص196).

وبعد خروج العثمانيين من مدينة المخاء حرص الحسن على تعمیر وترميم دورها وسورها الدائر، وحفر بئر ماء، وامتد ذلك الاهتمام بالعمران إلى مدن تهامية متعددة في ساحل تهامة⁽¹¹⁾، وافتتح عمارة الحصن الدامغ في ذمار سنة 1040هـ، وعمل على تسهيل طرقه وإحياء أوديته، وعمارة جوامعه، وبنى الحمامات والدور الواسعة⁽¹²⁾.

الحسين بن القاسم⁽¹³⁾:

الأخ الثاني للمؤيد محمد بن القاسم، كان له دوراً بارزاً في بناء الدولة لا يقل أهمية عن دور الآخرين. تبين ذلك في جُل أدواره السياسية والفكرية ناهيك عن دوره العلمي في مجاله، وحدود نفوذه الشخصي في إدارة البلاد قبل الاستقلال وبعده. يُعد الحسين بن القاسم الرجل الثاني بعد أخيه الحسن في حروب القاسميين ضد الدولة العثمانية، وبالرغم من اهتماماته العلمية المشهورة، إلا أنه كان حريصاً على المشاركة العسكرية في تلك المرحلة، منها دوره عند حصار العثمانيين في صنعاء حتى تم إخراجهم منها وتولي قيادة المنطقة الغربية والتصدي للخارجين عن طاعة الإمام فيها.

اهتم الحسين بن القاسم بإبراز الدور الحضاري للدولة القاسمية، فاهتم بتأليف الكتب الإسلامية في أصول الدين والفقه، وظلت متداولة بين طلبة العلم، كان أهمها كتاب (غاية السؤل في علم الأصول) وشرحه في مجلدين، واهتم بتدوين الأحاديث النبوية وتنقيحها من كتب السنة، وله مصنفات عديدة في أمور الصلاة، وسجل ملاحظات عديدة على كتاب (الأساس) الذي كان من تأليف والده الإمام القاسم بن محمد وسماه (كتاب الأساس في عقائد الأكياس المتكفل بشرح الإلتباس)⁽¹⁴⁾.

كان للحسين بن القاسم أعمال سياسية وعسكرية تدرجت في كل مراحل حياته، وأثرت على انتاجه العلمي، وبرز حدود نفوذه الشخصي في البلاد، خاصة بعد وفاة أخيه الحسن بن القاسم؛ فقد منح الإمام المؤيد محمد أخاه الحسين دوراً سياسياً اضطلع به لإدارة المناطق الوسطى والجنوبية من اليمن.

تعرض الحسين بن القاسم لحملة من تقلبات السياسة وأوضاعها وتباين واختلاف الآراء مع الإمام وبقية مراكز القوى المختلفة، عند إدارة البلاد، لكن الإمام المؤيد محمد تمكن وباقتدار أن يمسك على زمام الأمور، بالرغم من بُعد مستقره في مدينة شهارة، لكنه نجح في إدارة البلاد، وتسيير دفة الحكم بعد الإستقلال وبمساعدة قادته ورجاله الذين عينهم في كل أرجاء البلاد، وقد واجه الحسين بن القاسم كثيراً من المصاعب عند إدارة المدن التي أوكلت إليه، وحاول التغلب عليها بمساعدة الإمام المؤيد محمد بن القاسم.

من تلك المصاعب التي واجهها تمثلت في عدم انصياع أولاد أخيه الحسن (أحمد بن الحسن، محمد بن الحسن) لأوامر عمهم الحسين بن القاسم، وحاولوا التفرّد بالقرار والأموال والعوائد الشهرية والإستئثار بها، وكانت بنظر والدهم الحسن بن القاسم،

(11) يحيى بن الحسين: البهجة، ص102؛ الجرُموزي: الجوهرة، ق277، 276أ).

(12) (ابن عامر؛ بغية المرید، ص196).

(13) ولد في ربيع الآخر 999هـ/ 1590م، ألف كتاب الغاية في علم الأصول وشرحه، توفي سنة 1050هـ/ 1648م في مدينة ذمار ودفن فيها (الشوكاني؛ البدر الطالع، ص238).

(14) (الجرُموزي: الجوهرة، ق112ب، الشرفي: اللالي، ج3، ق436؛ يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج3، ص194).

و غلب عليهم أمر أن الإمام سيجعل لهما أمر وإدارة المناطق الوسطى إقطاعاً وميراثاً⁽¹⁵⁾، لكن الإمام المؤيد محمد حرص على إسناد إدارة تلك الأقاليم لأخيه الحسين بن القاسم بعد وفاة الحسن، ووجه بأن يكون له الإحجام والإقدام والحل والإبرام.

سجل المؤرخون أعمال واهتمامات الحسين بن القاسم في أعمال البناء والمنشآت المعمارية إلى جانب اهتماماته العلمية، فقد اهتم ببناء الأسماسر و شيد المباني بالقرب من الحصن في ضوران أنس، وقام ببناء مسجد البستان في صنعاء بالقرب من باب السبحة ووقف عليه أوقافاً واسعة⁽¹⁶⁾.
أحمد بن القاسم⁽¹⁷⁾:

كان لأحمد بن القاسم دوراً سياسياً وإدارياً وعسكرياً بارزاً في عهد والده الإمام القاسم وفي عهد أخيه المؤيد محمد، فقد شارك في الحروب التي خاضها اليمينيون ضد العثمانيين في صنعاء وما حولها وفي مناطق عديدة من اليمن، وفي عهد الاستقلال أسند إليه إدارة مدينة صعدة وما حولها، وكان ملازماً للمؤيد في مدينة شهارة في وقت مرضه حتى وفاته.

حاول أحمد بن القاسم أخذ البيعة من علماء شهارة ومن المقربين في ذلك الحين، وكتب الرسائل لكافة آل القاسم ورؤساء القبائل يبلغهم ببيعته، فاشترطوا عليه أن تظل بأيديهم ما تحتهم من إدارة البلاد وعوائدها، لكنه لم يسايرهم فمالت القلوب عنه وأمسك يده عن العطايا للمقربين والعساكر، واتجهت أنظارهم إلى بيعة أخيه إسماعيل بن القاسم الذي أعلن معارضته لبيعة أخيه أحمد، ونجح في جمع الأعيان والأمراء والعامّة، وخاصة أفراد آل القاسم بكرمه وعطائه الواسع⁽¹⁸⁾، وبطبيعة الحال فقد نجح إسماعيل بن القاسم بقوة شخصيته وطموحه القوي، وعطائه الواسع ودهائه السياسي أن يجمع حوله الناس وتلقب بالمتوكل على الله.

وتعمد إغراء كل مراكز القوى بالأموال والمناصب، وترك بيعة أحمد بن القاسم، وتمكن من الإستحواذ على زمام الأمور، وبويع خلفاً للإمام المؤيد محمد بن القاسم. واستمر أحمد بن القاسم حاكماً على مدينة صعدة وما حولها، ويذكر له بناء الجامع الكبير في مدينة الروضة أحد متنزهات صنعاء، وأوقف عليه أوقافاً واسعة⁽¹⁹⁾.
المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم⁽²⁰⁾:

كانت نظرية الإمامة الزيدية تنص على إعلان الدعوة لمن يرى في نفسه اكتمال شروطها، ولا يحق للإمام أن يوصي بمن يخلفه، فلا يجوز فيها الوراثة، وقد نص الإمام القاسم بن محمد في كتابه الأساس شروطاً لمن يتسلم الإمامة ووجوبها عقلاً، لكن أبناء الإمام القاسم أرسوا قاعدة مخالفة لما ورد في المذهب الزيدي بأن تم حصر الإمامة في الأبناء أو في البيت نفسه⁽²¹⁾.

(15) (بحنى بن الحسين: البيعة، ص134).

(16) (نفسه، ص198).

(17) أحمد بن القاسم "أبو طالب" عمّر الجامع المقدس في الروضة في ضاحية صنعاء الشمالية، كان عاملاً على مدينة صعدة في عهد والده، ولد سنة 1007هـ، دعى لنفسه في شهارة سنة 1054هـ، ثم تنازل لأخيه المتوكل إسماعيل، توفي سنة 1066هـ، وقبر بقبتها في شهارة. (ابن عامر؛ بغية المرید، ص345، 351، 355).

(18) (عامر بن محمد: البغية، ص352-361).

(19) (العمری: تاریخ اليمن الحديث والمعاصر، ص40).

(20) ولد في شعبان 1019هـ/ أكتوبر 1610م في شهارة، ووفاته في جمادى الآخرة 1087هـ/ أغسطس 1676م.

(21) (العمری: تاریخ اليمن الحديث والمعاصر، ص37).

كان إسماعيل بن القاسم يتولى إمارة مدينة تعز ثم انتقل إلى ضوران آنس بعد وفاة الإمام المؤيد محمد نظراً لمكانة المدينة المرموقة بالنسبة لأولاد الحسن بن القاسم وبقية الأمراء وعدد كبير من العلماء والقادة والوجهاء.

نجح إسماعيل بن القاسم بدهائه السياسي أن يحوز على رضى العلماء وبقية أمراء بيت القاسم بعد وفاة الإمام المؤيد محمد، وتسلم زمام الإمامة بعد خوضه حرب ومواجهة ضد أخيه أحمد بن القاسم، الذي رفض عرض المناظرة العلمية بين الطرفين، والحكم في الأخير للأعلم وبالتالي يكون الأجدر بمنصب الإمامة.

واستحوذ إسماعيل بن القاسم على منصب الإمامة ولقب بالمتوكل، بعد تنازل أحمد بن القاسم لأخيه وتم تعيينه حاكماً على مدينة صعدة كما كان من قبل واستمر فيها حتى وفاته سنة (1066هـ/1655م) (22).

اشتهر المتوكل إسماعيل بن القاسم بالحنكة السياسية والشخصية القوية، وأصبح له مكانة مرموقة في تاريخ اليمن الحديث، استطاع أن يثبت أركان الدولة القاسمية، ونجح في توحيد اليمن تحت لواء دولة مركزية ضم إلى سلطته مناطق وأقاليم مختلفة من أقصى شمال اليمن امتدت إلى أبين وعدن ولحج ويافع وحضرموت شرقاً، وكان للمتوكل إسماعيل علاقات خارجية متنوعة مع الأشراف في الحجاز واليعاربة في عُمان وبلاد الحبشة والدولة المغولية في بلاد الهند (23).

وشهد عصر المتوكل إسماعيل نهضة علمية وفكرية كبيرة تجلّى بوجود عدد كبير من العلماء والفقهاء والمفكرين، وظهر مستويات عديدة من الكتابات والمؤلفات المختلفة في ذلك العصر، ونبغ علماء وأدباء كبار في اليمن في حقبة تدنى فيها الفكر العربي الإسلامي، وقد أولى المتوكل العلم والعلماء جُل اهتمامه وحفظ لهم مكانتهم العالية، وقرب إليه العلماء وأجزل لهم العطاء، وكان إذا ما زار مدينة أو قرية اصطحب معه أكابر العلماء وطلبة العلم للإستشارة والمشورة.

حققت الدولة القاسمية في عصر المتوكل إسماعيل نتائج ملحوظة في المجال الزراعي والنشاط التجاري وتبادلها مع الشعوب المجاورة، وتم الاهتمام بالمدن الساحلية والموانئ البحرية وبناء الأسوار المتصلة بالبحر في المدن الساحلية وحرص على تأسيس نظام جمركي للبضائع الواردة ورسومها، واهتم المتوكل إسماعيل بسن قانون صنعاء سنة 1066هـ/1655م لتحديد التعاريف والأسعار والضرائب المفروضة في السوق، والأجر اليومي للعمال وكافة المهن القائمة آنذاك، وتم إقامة دار الضرب للعملة واهتم بها كثيراً حتى أصبح لها رواجاً بين الناس ووصلت إلى مكة والمدينة (24).

صاحب ذلك انتعاش النهضة العمرانية والاقتصادية والتجارية، وتم توسيع الجوامع وإصلاحها في مدينة ذمار، وفي مدينة الحصين، واهتم ببناء وترميم حصن كحلان، وأقام عدد من المدارس في دمت، وبنى السمسرة التجارية في مدينة صنعاء بالقرب

(22) (نفسه، ص40).

(23) (الهجري: تحفة الأسماع، ج1، ص52-62).

(24) (الهجري: التحفة، ج1، ص66-69).

من الجامع الكبير، وقام بتعمير وترميم مدارس العلم في مدينة عدن، وبناء دار السعادة في المدينة⁽²⁵⁾.

كان للعلماء والفقهاء والمؤرخين دور بارز في تلك المرحلة التاريخية من عمر الدولة القاسمية، فقد تركوا مدوناتهم وكتبهم التاريخية والإسلامية شاهداً على مدى التوسع والحرية الفكرية التي أمدتنا بالكثير عن تلك المرحلة من تاريخ اليمن الحديث.

نذكر على سبيل المثال المؤرخ القاضي/ أحمد بن صالح بن أبي الرجال صاحب كتاب (مطلع البدور ومجمع البحور) المتوفى (1092هـ/1681م)، والحسين بن يحيى السحولي (ت1073هـ/1662م)، وأحمد بن سعيد الهبل (ت1061هـ/1650م)، وعبدالقادر المحير سي (ت1077هـ/1666م)، وأحمد بن يحيى بن حابس الدواري (ت1061هـ/1650م)، والحسن بن أحمد الحيمي صاحب رحلة الحبشة، والقاضي أحمد بن عبدالله حنش (ت1080هـ/1669م).

والعلامة محمد بن إبراهيم مفضل (ت1085هـ/1674م)، والمفكر صالح بن مهدي المقبل (ت1108هـ/1696م) صاحب كتاب العلم الشامخ. والمؤرخ المطهر الجرموزي صاحب السير الثلاث الذي عاصر الإمام القاسم والمؤيد محمد والمتوكل إسماعيل، وسجل سيرهم جميعاً، وغيرهم كثير كان لهم شأن ودور في تدوين أحداث ومعالص عصر الدولة القاسمية المستقلة.

أولاً: رحلات الحج واهتمام حكام الدولة القاسمية بمحمل الحاج اليمني إلى مكة المكرمة، من خلال المصادر اليمنية المتنوعة.

إهتم المسلمون كافة بموسم الحج، وكان لكل دولة إسلامية طقوسها الموسمية التي أظهرت مدى اهتمام الدولة ورعاها من أجل تسهيل وتسيير مواسم الحج إلى بيت الله الحرام، فكان العثمانيون يهتمون بموسم الحج على اعتبار أنه شعيرة مقدسة من شعائر المسلمين، وبعد خروجهم من اليمن سنة (1045هـ/1635م) قامت الدولة القاسمية بنفس الدور الديني، فاهتمت بمحمل الحاج اليمني، وحرص أئمة الدولة القاسمية على الاهتمام بموسم الحج، وذكر ذلك في رسائل وكتب وأشعار المؤرخين والكتاب اليمنيين⁽²⁶⁾.

اهتم القاسميون بإمارة الحج وبمن يتولاها ويقودها إلى المشاعر المقدسة، وكيفية تجهيزها وحراستها حتى عودة المحمل إلى اليمن، وقد تم تعيين وتقليد إمارة الحج للمقربين من أفراد الأسرة القاسمية أو من القادة العسكريين وذوي الوجاهات الاجتماعية أو من المماليك، وتم اصدار قرار من الإمام ليكون أمير الحج مسئولاً عن الإعداد والتجهيز وتوفير الجمال والخيل وتوفير الماء والطعام، ويصحب القافلة مجموعة من العساكر يقومون بحراسة الحجاج وخدمتهم طوال الرحلة، وقد حاولت الدولة القاسمية إضافة المظاهر البهيجة على محمل الحج اليمني متبعة بذلك التقاليد الإسلامية التي كانت سارية في معظم البلدان العربية والإسلامية.

(25) (نفسه، ص71).

(26) كتب كثير من المؤرخين والكتاب رسائل وأشعار عن رحلة الحاج اليمني إلى بيت الله الحرام منها: كتاب للمؤرخ لطف الله جحاف 1189-1243هـ/1775-1828م، سماه "قرة العين بالرحلة إلى الحرمين"، وغيرها كثير. (قصيدة للإمام المتوكل إسماعيل عند رجوع حاج اليمن، نسخة مخطوطة بالجامع الكبير برقم 33).

حرصت الدولة القاسمية على فرض وترسيخ الهيبة والاحترام للدولة وتوجيه رسائل للقبائل القاطنة في منازل وطرق الحج، ولأشراف مكة وموظفي الدولة العثمانية في الحجاز، وإبرازاً لمكانة وقوة الدولة قام القاسميون ببناء عدداً من المنشآت الخيرية للحجاج في الطرق وإصلاح الآبار وبناء السماسر⁽²⁷⁾.

كانت إمارة الحج في عهد الإمام المؤيد محمد بن القاسم قد بدأت بصورة غير رسمية، فقد أسند المؤيد الإمارة إلى محمد بن أحمد بن الحسين ثم إلى ابن أخته إبراهيم بن عامر، وفي سنة 1042هـ حج عدد كبير من أسرة آل القاسم وهم إسماعيل بن القاسم والحسين بن إبراهيم بن عامر وانضم معهم عدد كبير من رؤساء القبائل والقاضي سعد الدين المسوري⁽²⁸⁾، يرافقهم حامية عسكرية.

وذكر بأن حجاج اليمن في هذا الموسم كان كبيراً وقد بلغ عددهم عشرة آلاف أو يزيدون، كان حضورهم ملفتاً للأنظار ولذا لم يتعرض لهم العثمانيون حين دخلوا الأراضي الحجازية⁽²⁹⁾.

وقد حرص المؤيد محمد بن القاسم في بداية تسلمه زمام الإمامة على تجهيز قافلة الحج وتكليف أحد الأمراء بمرافقتها يشاركونهم أحد أشراف المخلاف السليماني، وقام بمكاتبة أمراء الدولة العثمانية في نجد والحجاز، وضح فيها أهمية قافلة الحج اليمني وأمن وسلامة الحجاج في البر والبحر ذهاباً وإياباً⁽³⁰⁾.

ومن مظاهر الاهتمام بهذا الموسم الديني المقدس أن حكام الدولة القاسمية بذلوا جهوداً كبيرة من أجل حماية السواحل البحرية وطرق ومسالك البحر في السواحل الغربية والجنوبية لليمن، وقاموا بملاحقة السفن الأوروبية التي تقوم بأعمال الحراية البحرية واعتراض سفن الحجاج والتجار⁽³¹⁾.

وعند قدوم موسم الحج كان يتم الإعلان في البلاد لكل من أراد الحج من مأمور وأمير صغير وكبير، فهو آمن محفوظ في البعد والقرب حتى يبلغ مأمنه وينال أمله، ويسير الحجاج تحت حراسة من يتم تعيينهم من عساكر الدولة⁽³²⁾.

وذكر أن أحمد بن الحسن قد رافق قافلة الحج في سنة 1052هـ/1642م، وكانت إمارة الحج للسيد محمد بن صلاح النعمي متولي جيزان وأبي عريش، فقام بمرافقة الحجاج ومعه مجموعة من العساكر حتى وصل بهم إلى منطقة حلي بن يعقوب، حتى لا يتعرضوا للنهب والأسلب، وقد يتركهم ويعود، ومن ثم يواصل الحجاج مسيرهم إلى بيت الله الحرام بدون أمير ولا عسكر⁽³³⁾.

كان الإمام القاسمي يقوم بتعيين قاضٍ يرافق الحجاج أثناء الموسم، وتكون مهمته النظر في شئونهم وحل خلافاتهم وتنتهي وظيفة القاضي بمجرد انتهاء موسم الحج، ومن شغل هذه الوظيفة لعدة سنوات القاضي عز الدين علي بن الحسن النعمي

(27) (النقيب: قوافل الحج اليمني في عهد الدولة القاسمية، رسالة دكتوراة غير منشورة، ص55).

(28) القاضي سعد الدين المسوري: حجة الإسلام، كان متصلاً بالإمام القاسم بن محمد ومن رجال دولته وكتابه، ثم أزره وجاهد وناصر الإمام المؤيد محمد بن القاسم. اشتهر في كل علوم الرواية والدراية وكل أنواع التعاليم والتحاكم وعلوم المعقول، كان ناطقاً بالحكمة وفصل الخطاب، عاش حتى عصر المتوكل إسماعيل وكان من رجال دولته. توفي في شهارة في محرم 1079هـ - 1668م، وقبر بجانب قبر الإمام القاسم بن محمد. (ابن عامر؛ البغية، ص87).

(29) (الشرفي: اللآلئ المضيئة، ج3، ق622).

(30) (الشرفي: اللآلئ المضيئة، ج3، ق637)، (النقيب: قوافل الحج، ص50).

(31) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص527).

(32) (النقيب: قوافل الحج، ص51).

(33) (الأمير: الأوضاع السياسية، ج1، ص412).

المتوفى (1067هـ/1656م)⁽³⁴⁾، وعندما تسلم زمام الإمامة المتوكل إسماعيل بن القاسم (1054-1087هـ/1644-1676م)، أصبحت إمارة الحج منصب رسمي بموجب قرار يصدره الإمام، وبالتالي كان محمّل الحج اليمني يدخل إلى مكة بصفة رسمية، وكان أول أمير تقلد هذا المنصب أي أمير المحمل اليمني، الأمير أحمد بن الحسن بن القاسم في سنة (1058هـ/1648م)، فقد خرج محمّل الحج اليمني في موكب كبير تصحبه فرق من الجند ومعه مبالغ مالية كبيرة للمستحقين، وكان هذا هو حجه الثاني، وعند وصوله إلى مكة تم استقباله من قبل شريف مكة الأشرف زيد بن محسن بن أبي نمي⁽³⁵⁾، واجتمع الأمير بكبار العلماء والشخصيات التي كانت حاضرة في ذلك الموسم⁽³⁶⁾.

تقلد منصب أمير الحج اليمني عدد من الشخصيات والقادة منهم: إبراهيم بن أحمد عامر⁽³⁷⁾، وسرور بن شلبي، محمد بن إسماعيل⁽³⁸⁾ "الإمام" وأخيه علي بن إسماعيل؛ حرصاً من الدولة على اسناد هذا المنصب لشخصية قوية يكون لديه القدرة على تأمين سبل السفر والرحلة إلى بيت الله الحرام، ومعهم شخصيات أسرية واجتماعية مثل: السيد بدر الدين بن صلاح بن جحاف⁽³⁹⁾، والحاج فرحان⁽⁴⁰⁾، والنتيب سعيد بن ریحان⁽⁴¹⁾، الذي اشتهر في مكة وعرفته الأشراف وأمراء الدولة العثمانية وكان له ذكر جميل⁽⁴²⁾.

ونتيجة للاستقرار السياسي والعلاقات الخارجية مع أشراف الحجاز فقد حرصت الدولة القاسمية على حماية طرق الحجاج وحماية قوافلها من اليمن إلى الحجاز، وكان يتم إرسال الأموال لرؤساء القبائل الواقعة على طريق القوافل مع أمير قافلة الحج اليمني، وإذا قصرت الدولة في دفع الأموال لتلك القبائل كانت قوافل الحجاج تتعرض للنهب والسلب، وبالتالي تقوم الدولة بإرسال حملات تأديبية ضد تلك القبائل المعتدية؛ منها حين أرسل الإمام إسماعيل بن القاسم حملة عسكرية كبيرة لتأديب قبائل الحرامية في نواحي تهامة وأبي عريش⁽⁴³⁾.

كان لأحمد بن الحسن بن القاسم⁽⁴⁴⁾ دور قيادي في إمارة الحج اليمني لعدة سنوات، منها في عهد عمه المؤيد محمد بن القاسم، وفي عهد الإمام إسماعيل بن القاسم أسند إليه قيادة محمّل الحج اليمني سنة 1062هـ، ورافقه نحو ثلاثة آلاف من الجنود والحجاج ومعه مائة ألف حرف من النقود، وفاض بالإحسان والصدقات في بلاد

(34) (البابكي: النظام القضائي في الدولة القاسمية، ص111)، رسالة ماجستير غير منشورة.

(35) الشريف زيد بن محسن بن حسن بن أبي نمي: ولد 1016هـ - 1607م، سلطان الحرمين الشريفين، وهو رأس الأشراف آل زيد توفي (1077هـ - 1666م). الشريف أحمد الضياء العنقاوي؛ معجم أشراف الحجاز في بلاد الحرمين، ج1، ص530).

(36) (عامر بن الرشيد: بغية المرید، ص89).

(37) إبراهيم بن أحمد بن عامر: ولد في شهارة سنة 1018هـ توفي سنة 1056هـ. (ابن عامر: بغية المرید، ص81).

(38) محمد بن إسماعيل بن الإمام القاسم: ولد سنة 1044هـ، بويع بالإمامة بعد وفاة الإمام أحمد بن الحسن ولقب بالمؤيد الصغير سنة 1092هـ. استوطن هجرة معبر المشهورة القريبة من مدينة دمار. توفي في شهر جمادى الآخرة 1097هـ - 1686م. (الشوكاني؛ البدر الطالع، تحقيق: أ.د. حسين العمري، ص655).

(39) السيد بدر الدين بن صلاح بن جحاف: كان فقيهاً عارفاً مدرساً، توفي سنة 1053هـ في بلدة حبور. (ابن عامر؛ بغية المرید، ص209).

(40) الحاج فرحان بن عبدالله: كان مولياً وعبداً صالحاً خدم المتوكل إسماعيل حتى آخر عمره وكان له مكانة خاصة لدى الإمام، عينه أميراً على محمّل الحج اليمني لمدة خمسة عشر حجة. وقد اشتهر في مكة وعرفته الأشراف والأمراء العثمانيين. وفي رحلات الحج تلك كان يصحب معه شخصيات وأمراء البيت الحاكم. (العمري؛ الأمراء العبيد والمماليك في اليمن، ص56).

(41) النتيب سعيد بن ریحان: كان من مماليك المتوكل إسماعيل الذين اعقدهم وولاه عمالة المخا، ثم ولاية بيت المال. (أ.د. العمري؛ الأمراء العبيد والمماليك، ص55).

(42) (العمري: الأمراء والعبيد، ص56).

(43) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص62، 674، 692).

(44) أحمد بن الحسن بن القاسم: ولد سنة 1029هـ، توفي سنة 1092هـ، تولى الإمامة خمس سنوات بعد وفاة المتوكل إسماعيل بن القاسم. (ابن عامر؛ بغية المرید، ص253).

الحرمين الشريفين، واجتمع بالشريف زيد بن محسن⁽⁴⁵⁾ وكبار علماء مكة المكرمة⁽⁴⁶⁾.

وقد استمرت قيادة أحمد بن الحسن بن القاسم لإمارة محمل الحج اليمني لعدة سنوات في عهد عمه الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم، وحين استلم زمام الإمامة حرص على الإشراف بنفسه على تجهيز قوافل الحج، وإعطاء توجيهاته في النفقات ووسائل الحماية من صنعاء إلى الحجاز⁽⁴⁷⁾.

أصبح منصب أمير الحج له مكانة كبيرة لدى أسرة آل القاسم فحرصوا على استمرار إعداد قوافل محمل الحج، وتعيين أمير الحج من الشخصيات الكبيرة في الدولة، وفي عهد المتوكل إسماعيل كان يتم تجهيز قافلة الحج من مدينة ضوران أنس⁽⁴⁸⁾ على اعتبار أنها عاصمة الدولة القاسمية، أو من مدينة صنعاء أو من هجرة شهارة في بعض المواسم.

كان موكب محمل الحج اليمني ترافقه فرقة من الجند مثل باقي القوافل العربية والإسلامية، ويتم إرسال المال لشريف مكة حتى يتم توزيعها على الأربطة والفقراء ومن انقطعت بهم السبل، وبهذه الإجراءات كان المتوكل إسماعيل حريصاً على إظهار قوة دولته وازدهارها، ومن أجل كسب وتوثيق علاقات متنوعة مع مختلف الأقطار العربية والإسلامية⁽⁴⁹⁾.

استمرت إمارة أحمد بن الحسن لقيادة محمل الحج اليمني لعدة سنوات، كان الشريف زيد بن محسن بن أبي نمي يستقبله ويستلم منه الصّر السنوي الذي حرص المتوكل على إرساله سنوياً مع ابن أخيه⁽⁵⁰⁾.

اهتم أئمة الدولة القاسمية بمنصب أمير محمل الحج اليمني، ولذا فقد تم اسناده لشخصيات اجتماعية مرموقة وبصحبته شخصيات قوية من العلماء والفضلاء من أهل اليمن.

وقد أورد الإمام المتوكل إسماعيل صورة واضحة لمهام الحج من خلال وصية سجلها لإبنه الحسن بن إسماعيل تضمنت الوصية مجموعة من النصائح والمواعظ منها "فأجعل تقوى الله نصب عينيك، ولا تغفل عن ذكر الله ولا عما يجب من حقوق الله، ومذاكرة حقوق العلماء ومساءلتهم، واستشارة الفضلاء والعمل برأيهم، وتعظيم ذوي الحقوق وتنزيلهم منازلهم، وصلة الأرحام، وتعظيم وإكرام المساكين والشفقة عليهم، وتفقد الجند بما يجمع كلمتهم ولم شملهم، ويحببك إليهم والتنبيه على جميع الحجاج بما فيه صلاحهم وتأمينهم، ورد المتشاجرين إلى الأشرع، والاصبر عند الغيظ، وتفقد أهل الخدمة بما يصلحهم ويرغبهم وينشطهم من الإحسان والتهيب الذي لا يكون مفراطاً ولا فيه تفريط إلى آخره)⁽⁵¹⁾.

(45) الشريف زيد بن محسن: تولى مكة بعد خروج الشريف نامي بن عبدالمطلب سنة 1041 هـ، حكم مدة خمس وثلاثون سنة، توفي سنة 1077 هـ. (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص110).

(46) (أبو طالب: طيب أصل الكساء، ص32،30،54).

(47) (النقيب: قوافل الحج، ص58).

(48) ضوران أنس: جبل معروف بجبل الدامغ في سفحه تقع مدينة ضوران، كانت تحمل اسم الحصين. مركز علمي مشهور، اتخذها الحسن بن القاسم مقراً لإمارته وبها توفي سنة 1048 هـ، ثم اتخذها المتوكل إسماعيل عاصمة وتوفي بها سنة 1087 هـ. وهي تابعة لمحافظة ذمار وبها عدداً من المراكز الإدارية. (المقحفي؛ معجم البلدان، ج1، ص950).

(49) (النقيب: قوافل الحج، ص57).

(50) (العمرى: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، ص64).

(51) (الجرموزي: التحفة، ج2، ص924).

من خلال معاني وكلمات تلك الوصية يظهر لنا مدى اهتمام الدولة القاسمية بقافلة الحج، التي سعى الإمام على خدمتها وإبراز أخلاقيات وفضائل الدين الإسلامي، ومن أجل كسب أفئدة المجتمع اليمني وولائهم للدولة.

ذكر المؤرخون محمل الحج اليمني ووصفه في عهد الدولة القاسمية وحرصهم على إرسال الصَّـرِّ السنوي لزعماء القبائل الواقعة على طريق الحج ولأشراف مكة، وعمد المتوكل إسماعيل على الاهتمام بمحمل الحج اليمني، فقد كانت القافلة تضم بين أفرادها أهل العلم والرئاسة وصفوة نجباء الجند والخاصة، ويتم استقبالها من قبل أهل الجبل والسهل وبالضيافة والحماية، فقد كانت القافلة تزردان بالسلاح والرايات والطبول، ويتم الإنفاق على كل من التحق بالقافلة من المساكين والضعفاء⁽⁵²⁾.
وقام أئمة الدولة القاسمية بإرسال الصَّـرِّ السنوي لشريف مكة ومحاولة استرضائه نظير دخول محمل الحج اليمني بكل عتاده من الجنود والسلاح إلى مكة والحرمين الشريفين.

وكثيراً ما يتم إرسال الهدايا للأشراف حيث ذكر أن المؤيد محمد بن المتوكل إسماعيل أهدى الشريف أحمد بن زيد هدية عينية إلى جانب الدراهم، تكونت من ثلاثة جياذ عربية أصيلة، وثلاثة سيوف هندية مميزة، بالرغم من أن مؤسسة الشرافة في الحرمين كانت تتبع الإدارة العثمانية⁽⁵³⁾.

وقد انتقد أحمد بن القاسم بعض أعمال أخيه المتوكل إسماعيل في إدارة الدولة، ومنها المغالاة في حجم الصَّـرِّ السنوي المرسل إلى مكة المكرمة فذكر "ما كان ينبغي له لأنه يكون لمن ولي بعده مشقة ولا يكاد يقومون بذلك"، وقد صدق في ذلك فقد قامت ثورات في المشرق ضد المتوكل إسماعيل وعجز الإمام عن حكمه، وبالتالي نقص الصر بل انقطع ممن جاء بعده من الأئمة⁽⁵⁴⁾.

أظهر القاسميون مدى قوة دولتهم من خلال مراسيم محمل الحج السنوي، ففي سنة 1076هـ/1666م كان حج اليمنيين ناجحاً قوياً من جميع طرقه ونواحيه، وكان أمير المحمل اليمني علي بن أحمد بن القاسم صاحب صعدة، اتخذ طريق الشرق وبيشة ثم عرج على تهامة حتى دخل بلاد الحجاز، وحين دخل مكة أطلق الأعيرة النارية، ودقت الطبول، وبعد تمام الموسم حاول الاستئذان لزيارة الشريف زيد لكن الشريف اعتذر عنه وامتنع عن لقائه⁽⁵⁵⁾.

وتواردت الأخبار عن خروج محمل الحج اليمني في السنوات التي حكم فيها أولاد الإمام القاسم بن محمد، وذكر فيها أخبار الحج والحجاج في كل المصادر اليمنية، وقد ورد أخبار محمل الحج سنة 1077هـ-1666م، حين جهز الإمام المتوكل الحاج اليمني صحبة ولده يحيى ومعه الفقيه سعيد بن علي بن جميل فرحان وبصحبته قدر خمسمائة من العسكر، وتكرر ذلك في سنة 1078هـ حين جهز الإمام المحمل وقلد عليه النقيب سعيد بن ریحان لما اشتهر به من الكمال والإحسان وسار معه العسكر، وذكر بأن

(52) (الجرموزي: التحفة، ج2، ص810).

(53) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج3، ص1301).

(54) (نفسه، ج2، ص547).

(55) (نفسه، ج2، ص663).

الحج هذه السنة كان ضعيفاً بسبب غلاء الأسعار وقلة الجمال، وقد رجع بعض الحجاج من مدينة صيباً⁽⁵⁶⁾.

وذكرت بعض المصادر أخبار عن محمل الحج اليمني والظروف التي كانت تقف أحياناً في عدم إتمام مراسيم الحج ففي سنة 1082هـ / 1670م، وصلت الأخبار أن حجاج اليمن وصلوا إلى السعدية محل الإحرام جنوب مكة في شمال غرب ميناء الليث، استعداداً للدخول إلى مكة، وصلتهم رسل من الشريف سعد بن زيد⁽⁵⁷⁾ صاحب مكة، يحذروهم من الدخول وعليهم الرجوع من غير تراخ ولا توان، فلم يسع الحجاج إلا العودة والمسارعة من تلك الأراضي، وذكر الشريف أن السبب دخول عساكر الدولة العثمانية بأعداد كبيرة من الخيول والمطايا والبنادق وغيرها من الآلات والسلاح، وتم إرسال بعض من الوديعه مع الأمير إلى الشريف سعد بن زيد إلى مكة فقبضها، وقد تعرض محمل الحج اليمني لعمليات نهب من بعض القبائل، لكن الأمير فرحان صدهم ودافع عن القافلة. كل ذلك كان نتيجة للفوضى والتنافس بين إدارة الأشرف في الحجاز، وقد لحق بهم وزير الشريف سعد إلى حلي بن يعقوب هارباً بأولاده ومماليكه، واجتمع بالأمير فرحان ووصلوا إلى الإمام المتوكل إسماعيل في ضوران أنس. وقد علق المؤرخ يحيى بن الحسين بقوله: "هذا ما غرسوه من هذه المحنة على جملة المسلمين كافة في حرم الله وأمنه فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"⁽⁵⁸⁾. ولما وصل الأمير فرحان صنعاء وأخبر الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم قال: لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنة، فقد صد صلى الله عليه وسلم عن البيت⁽⁵⁹⁾.

بالرغم من حرص الدولة القاسمية على خروج المحمل السنوي لحجاج بيت الله الحرام، ولكن اختلاف وتتابع الأحداث السياسية أدى إلى تغيير الأشرف وتنافسهم وصراعهم حول منصب الشرافة، ولا تخلو فترة من فترات التاريخ الحجازي دون حدوث فتن وصادم حول هذا المنصب، أو من القبائل المجاورة التي تقطن في طريق محمل الحجاج، وقد كان للباشوات العثمانيين دورٌ في ذلك الصدام خاصة في مكة والمدينة وفي ميناء جدة.

ذكر المؤرخون جملة من تلك الفتن ضد الأشرف ومنها تدخل باشوات وعساكر السلطنة في عهد الشريف سعد بن زيد وفي أعمال وإدارة مشاعر الحج ورعاية الحجاج في المشاعر المقدسة. ففي عام 1083هـ / 1672م وقعت بعض الفتن والأثام وقتل النفوس، وكان الشريف يخشى من إفساد أيام الحج، فقد فر وخرج كثيراً من حجاج اليمن هرباً من الفوضى التي نشبت في ذلك الحين، نتيجة لتعرض قبائل هذيل لمحمل الحج اليمني، وانتهبوا الأموال والحوائج وتم قتل جماعة منهم، بالرغم أن الشريف سعد بن زيد أمر بدخول حجاج اليمن بسلاحه من أجل المدافعة من الحرامية

(56) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص674، 685).

(57) الشريف سعد بن زيد: استلم الشرافة سنة 1077هـ بعد وفاة والده، عارض الشريف حمود، ثم اتفقا وأرسلت الدولة العثمانية بمرسوم التأييد والبقاء على كرسي الشرافة. تولى شرافة مكة المكرمة أربع مرات، الشرافة الأولى كانت مدتها ست سنوات، تنحى عن الشرافة سنة 1083هـ. (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص124).

(58) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص787، 789).

(59) (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص122).

وقطاع الطريق، وقد دفع له الإمام ما أرضاه من المال والهدايا صحبة الحاج، وقد أجاز ذلك مكرهاً بالرغم من خشيته من السلطان وجنوده⁽⁶⁰⁾. وتتابع الأخبار والأحوال عن محمل الحاج ودور الأشراف في ذلك الوقت من المهاندنة والسماح للحجاج بالدخول للأراضي الحجازية، وفي مواسم أخرى كان يتم المنع خاصة حين بدأت أحوال الدولة في الضعف، وتزعزعت الأحوال السياسية في اليمن. وقد تطورت الأوضاع في الحجاز بأن وصل للإمام أخبار من الشريف بركات⁽⁶¹⁾ بعدم المنع ولكن أن يتم قدوم الحجاج بدون سلاح ولا بندق ولا رماح، وطلب الشريف أن يتم إرسال الدراهم التي كانت ترسل لمن سبقه من الأشراف، فتم تعيين السيد محمد بن صلاح النعمي⁽⁶²⁾ أميراً للحج اليمني في ذلك العام وتم إرسال ثلاثمائة نفر والدراهم المعتادة للشريف والتي تقدر بحوالي عشرة آلاف قرش⁽⁶³⁾. وفي عهد الإمام أحمد بن الحسن بن القاسم تم تعيين الأغا فرحان أميراً على المحمل، وتولى التجهيز والإعداد من صنعاء محمد بن المتوكل إسماعيل (المؤيد الصغير)⁽⁶⁴⁾.

تولى أحمد بن الحسين (1087-1094هـ) الإمامة بعد وفاة المتوكل إسماعيل بن القاسم، وفي سنة 1088هـ كتب الإمام للشريف بركات يستأذنه في دخول البيت الحرام وإجابة الدعوة له في نجد والحجاز، ويبدو أن الإمام أحمد بن الحسن كان يحاول فرض شيئاً من النفوذ على الأشراف في الحجاز لكن رد الشريف كان رداً دبلوماسياً فلم يصد الإمام ولم يظهر الممانعة، بل حذر الإمام من عواقب زيارة الإمام لمكة المكرمة أو من القيام بأي حركة أو تصرف في الأراضي الحجازية، وهي أراض تقع تحت نفوذ سلطة السلطنة العثمانية، فقال: "إنني منكم وإليكم" فقد رفع من نفسه الحرج وأظهر موقف السلطنة الراض للزيارة أو التدخل في شئون الحرمين الشريفين، وفيه تعدٍ على مصالح ونفوذ السلطان وأملاكه، وتعهد الشريف أن يُذكر الإمام بقوة السلطان وجبروته، وتحذيره من مغبة التدخل في شئون الحرمين وترك له الخيار والإتزان في اتخاذ القرار. ومن هذا المنطلق انصرف الإمام أحمد بن الحسن عن ذلك، واهتم لما هو أهم من شئون دولته⁽⁶⁵⁾.

واستمرت الدولة القاسمية في بذل محاولات موسمية من أجل تسيير محمل الحج اليمني إلى الأراضي المقدسة، ففي سنة 1089هـ/1668م، وصل حجاج اليمن برئاسة الأغا سعيد بن ریحان إلى الأراضي الحجازية فأرسل لهم الشريف إلى الطريق بأن يدخلوا الحجاز بدون سلاح ولا يظهرونه تجنباً للاستخدام بالعساكر والأمراء العثمانيين، فدخل حجاج اليمن على تلك الصورة الخفية، واستقروا في الشبكة⁽⁶⁶⁾.

(60) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص790-792؛ أبو طالب: طيب أهل الكساء، ص108م).

(61) الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبي نمي: ولايتي سنة 1082هـ، ألبسه الباشا العثماني الخلة السلطانية، كان وحيد عصره كثير الإحسان بالأشراف وحُمدت سيرته. توفي في ربيع ثاني 1094هـ ودفن بالمعلاة بمكة المكرمة. (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص124. العقنقوي؛ معجم أشراف الحجاز، ج1، ص58).

(62) محمد بن صلاح النعمي: كان من القادة المقربين للحسن بن القاسم في الحرب الأخيرة على العثمانيين حتى تم خروجهم من اليمن.

(63) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ص809).

(64) (أبو طالب: الشذور العسجدية، ص164).

(65) (نفسه، ص170).

(66) (يحيى بن الحسين: البهجة، ج2، ص688).

ونتيجة لتراجع منصب الإمامة وظهور صراع القوى المتنافسة على منصب الإمامة، ضعفت سيطرة الدولة القاسمية على بعض أقاليم اليمن، وكثر تعدي القبائل والبدو على محمل الحج اليمني. واختفت فرقة الجند التي كانت ترافق القافلة وضعت هيبة الدولة لدى أشرف الحجاز، وتكرر الطلب من أمير الحج اليمني أن يدخل مكة متخفياً ومعه حجاج اليمن خوفاً من سطوة وغضب موظفي السلطنة العثمانية المسيطرة على الحجاز.

وحين استلم الإمام محمد بن المتوكل إسماعيل (المؤيد الصغير) زمام الإمامة كان من أولويات اهتمامه في الحكم الاهتمام بمحمل الحج اليمني، فقد أمر بإصلاح الطرق والآبار في محطات التقاء الحجاج في الذهاب والإياب وتجهيز وإعداد القافلة في مواعدها المحدد من الموسم السنوي⁽⁶⁷⁾.

اضطربت الحياة السياسية في اليمن في عهد الجيل الثاني من أبناء القاسم، وظهر التنافس بين مراكز القوى إلا أن الإمام محمد بن أحمد بن الحسين (صاحب المواهب) (ت 1130هـ/1718م) بذل جهوداً كبيرة من أجل تأمين طرق الحج، خاصة التي كانت تمر بالمخلاف السليماني، وحرص على أن تكون مدن المخلاف تحت إدارته وسيطرته وكثيراً ما أرسل حملات تأديبية لتأمين خط سير قوافل محمل الحج اليمني، ومطاردة قطاع الطرق على طريق السراة⁽⁶⁸⁾.

ظلت مؤسسة الإمامة تبذل محاولات من أجل خروج محمل الحج اليمني كما هو معتاد، وبالصورة التي تمت عليه في السنوات السابقة، تمثل بإعداد القافلة وتجهيزها، وتجهيز الصّر الذي اعتاد الأئمة على إرساله إلى أشرف الحجاز للتصدق على المساكين والفقراء⁽⁶⁹⁾.

وحين تفاقم الصراع بين مراكز القوى الإمامية، ضعف وقل الاهتمام بتجهيز محمل الحج اليمني، وانحصر دور الإمام على إرسال الرسائل والكتب إلى أشرف الحجاز وزعماء القبائل في الأقاليم التي يمر منها حجاج اليمن، وأصبحت قافلة الحج اليمني تدخل مكة دون حماية عسكرية⁽⁷⁰⁾.

وقد تم تغيير طريق الحج ومسالكه تبعاً للظروف السياسية إلى عدة طرق منها الطريق الجبلي، وتولى قيادة المحمل عدة شخصيات يمنية معروفة في ذلك الحين، حتى استقر طريق المحمل على الطريق الجبلي وأميرها الحسين بن مهدي الكبسي الذي ظل سنوات يترأس قافلة الحج، وأصبح منصب أمير الحج تقليداً تتوارثه أسرة آل الكبسي حتى تم دخول العثمانيين إلى اليمن سنة 1289هـ/1872م.

(67) (يحيى بن الحسين: البهجة، ج3، ص1275؛ النقيب: قوافل الحج، ص56، 58).

(68) (أبو طالب: السحر المبين، ص318؛ النقيب: قوافل الحج، ص54).

(69) (أبو طالب: أفراط اللجين، ص402).

(70) (النقيب: قوافل الحج، ص61).

ثانياً: علاقة الأشراف بأئمة الدولة القاسمية من خلال ما ورد في المخطوطات والمصادر المعاصرة.

منذ بداية (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) كانت المنافسة بين الأشراف في الحجاز تظهر من جديد واستمرت حتى القرن السابع عشر الميلادي، استفحل ذلك في أعقاب وفاة الشريف إدريس⁽⁷¹⁾ سنة 1624م، فقد تصارعت ثلاثة فروع من أبناء الشريف حسن بن أبي نمي⁽⁷²⁾ من أجل الحكم حتى نجح الشريف زيد بن محسن بن حسن⁽⁷³⁾ في فرض سلطته وهو جد لبني زيد الذين سينازعون آل بركات بن أبي نمي طوال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، وسيستمر ذلك النزاع حتى القرن الثامن عشر ومنها في سنة 1675م حين غادر الشريف خيرات مكة متجهاً إلى اليمن كنتيجة حتمية لذلك الصراع، وكثيراً ما قام الأئمة من آل القاسم باستقبال الأشراف الفارين من الحجاز، منها حين اختار الشريف أحمد بن غالب⁽⁷⁴⁾ اللجوء إلى اليمن، وقد أوكل إليه الإمام المؤيد محمد تحصيل عائدات مدينة جيزان، والقصد هو البحث عن المساعدة ولكي يكون له قاعدة تمكنه من الإنطلاق لمعاودة الإستيلاء على حكم الحجاز⁽⁷⁵⁾.

كان اليمن تحت قيادة الأئمة من آل القاسم ذو قوة سياسية جعلت من مدينة صنعاء ملاذاً لكثير من الأشراف المكيين الملاحقين، ويجدون الحماية وربما المساعدة المباشرة من أجل استعادة نفوذهم وسلطانهم⁽⁷⁶⁾.

وقد أشارت كثيراً من المصادر اليمنية إلى وجود علاقات سياسية بين أشراف مكة وأئمة اليمن منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وذلك نتيجة للإعتبارات التي ذُكرت، وهي ما ذكره المؤرخين، إتباع كثير من الأشراف للمذهب الزيدي وهو مذهب أئمة اليمن.

كان لموسم الحج ووصول محامل الحج الشامي والمصري واليميني يُعد من أعظم المناسبات الدينية التي يتم فيها استكمال مراسيم الاستقبال وتلقي الهدايا والصدقات وتنفيذ الواجبات إلى غير ذلك من الأمور العملية والشكلية التي كان السلاطين وأشراف الحجاز يولونها أعظم الإهتمام⁽⁷⁷⁾.

بدأت المراحل الأولى للعلاقة المكية اليمنية في العصر الحديث مع بداية قيام الدولة القاسمية (عصر الاستقلال عن الحكم العثماني) وخاصة منذ استلام الإمام المؤيد بن محمد بن القاسم زمام الإمامة.

وقد تم تبادل الرسائل بين الإمام المؤيد بن محمد بن القاسم وبين أشراف الحجاز، عند تسلّم المؤيد زمام الإمامة ووصلت الوفود من مكة المكرمة والمدينة المنورة للتهنئة

(71) الشريف إدريس: تولى الشرافة سنة 1013هـ، مولده سنة 974هـ بإجماع السادة الأشراف، ونتيجة لصراع الأشراف رفع الشريف إدريس عن ولاية الحجاز وفوضوا الأمر إلى الشريف محسن، وكانت وفاته 1034هـ/ 1624م. (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص91 – 94).

(72) الشريف حسن بن أبي نمي: من أولاد الشريف أبي نمي ويُدعى الحسن، ولد سنة 932هـ/ 1525م، وله سيرة حسنة حميدة وضبط الأمور والأحكام على أحسن نظام وأمنت البلاد واطمأنت العباد. توفي سنة 1010هـ وعمره تسع وسبعون سنة. (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص80-87).

(73) زيد بن محسن بن حسن: حين تولى الشرافة الشريف عبدالله بن حسن بن أبي نمي سنة 1040هـ وقد تنازل لولده محمد تعففاً وديانةً وقد أمر مكة لولده الشريف محمد، وأرسل إلى اليمن يطلب الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن أبي نمي لأنه بقي هناك بعد وفاة والده، وأراد أن يجعله شريكاً لولده، فوفد إليه الشريف زيد بن محسن وتخلّى الشريف عبدالله عن الأمر وتجرد للعبادة حتى توفي سنة 1041هـ (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص101).

(74) الشريف أحمد بن غالب: تولى سنة 1099هـ/ 1687م، عارضه الشريف محسن بن حسين بن السيد عبدالله بن سعيد، خرج إلى اليمن بعد أن قامت ضده الأشراف وأمراء السلطنة. (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص150).

(75) (البهكلي: خلاصة العسجد، ص40، ص45، ص51).

(76) (سنوك هور خروينه: صفحات من تاريخ مكة، مجلد1، ص237)؛ (البهكلي: خلاصة العسجد، ص55).

(77) (العمرى: يمانيات، ج3، ص159).

وإعلان التأييد⁽⁷⁸⁾، حرص المؤيد محمد بن القاسم على توطيد علاقته مع أشرف الحجاز من بني حسن وآل موسى بن عبدالله، وتم تبادل الرسائل وتبادل المنافع والأخبار، وقد قام المؤيد محمد سنة 1036هـ/1626م بإرسال رسالة لبني حسن وتم إبلاغهم بأخبار دعوته، وذكر فضلهم ومكانتهم في العتبات المقدسة من خلال إشرافهم على بيت الله الحرام، وحفظهم له استدامة للأمن وأحقية في الإشراف على الحجاز⁽⁷⁹⁾.

تقدم الشريف محسن بن حسن بن محمد بن بركات بن أبي نمي⁽⁸⁰⁾ بطلب إلى الإمام المؤيد محمد أن يكتب له "ولاية عامة على كل ما تحت يده، وينوب عن الإمام في كل أعماله وتنقلاته، ويقوم مقامه ويديسطة يده في ما يجوز له بسطه ويعول فيما يأتيه من ذلك على ما يعول، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ... إلى آخر الرسالة"⁽⁸¹⁾. ومن خلال تلك الرسالة والتفويض الذي سطره الإمام المؤيد محمد بن القاسم للشريف محسن بن حسن دل دلالة واضحة على حرص الأشراف لتوثيق الصلة والرابطة السياسية بينه وبين أئمة صنعاء، لكي يستعين بهم في نواصب وتقلبات السياسة والمنافسة بين الأشراف على منصب الشرافة مع وجود الحكم العثماني على الحجاز وموانئه.

وقد ورد في أحداث 1037هـ/1627م ما يظهر جلياً نموذج تلك العلاقة وارتباطهم بأئمة اليمن، وذلك حين غرقت سفن أحد باشوات الدولة العثمانية المتجهة نحو ساحل جدة، ويدعى أحمد باشا وتحمل الكثير من الأموال والعتاد، وحاولوا استنقاذها وأرسلوا الغواصين لاستخراج ما تحمله، لكنهم لم يدركوا شيئاً منها، وقد دخل الأشراف في نزاع حول تلك الأموال التي غرقت خاصة بعد وفاة الباشا أحمد، وتم عزل الشريف محسن وتولى الشريف أحمد بن عبدالمطلب⁽⁸²⁾ شريفاً على مكة والمدينة حتى ينبع بموجب التفويض الذي لدى الباشا من السلطان العثماني⁽⁸³⁾. ثم تجددت الفوضى والتنافس بين الأشراف على منصب الشرافة بين الشريف أحمد بن عبدالمطلب ومن والاه وبين الشريف محسن ومن عاضده من أولاد عمومته، مثل الشريف مسعود بن إدريس⁽⁸⁴⁾، والتقى الجمعان في معركة غير متكافئة خارج مكة انهزم فيها الشريف محسن بن حسن وتشتت الأشراف من حوله⁽⁸⁵⁾. وقد وردت هذه الرواية لدى الكثير من المؤرخين منهم الفقيه أحمد بن مهدي البهكلي، كما رواها المؤرخ أحمد بن محمد الشرفي في اللآلئ، وعزز تلك الرواية ما وصل للمؤرخ المطهر الجرموزي حين ذكر غرق السفينة قبالة سواحل جدة.

(78) (أمة الملك الثور: بناء الدولة القاسمية، ج1، ص147).

(79) (الجرموزي: الجوهرة المنيرة، ق12ب - ق16ب).

(80) من أحفاد الأشراف النعميين، حفيد الشريف حسن بن محمد أبي نمي الثاني بن بركات. (الشريف أحمد ضياء العنقاوي؛ معجم أشراف الحجاز، مج1، ص342).

(81) (الشرفي: اللآلئ المضيئة، ج3، ق565).

(82) الشريف أحمد بن عبدالمطلب: استولى على الشرافة سنة 1037هـ، دخل مكة وفيها جماعة الشريف محسن، فحبس جماعته، وقتل الشيخ عبدالرحمن المرشدي الذي كان من المقربين للشريف محسن، وأكثر عساكره الفساد في أشراف البلاد في عهده، قُتل الشريف أحمد بن عبدالمطلب سنة 1039هـ وتم تنصيب الشريف مسعود بن إدريس. (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص97 - 100).

(83) (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص95).

(84) الشريف مسعود بن إدريس: مسعود بن إدريس بن حسن بن أبي نمي، تولى سنة 1039هـ كان شريفاً جواداً شجاعاً حسن التدبير محباً للأدب عارفاً بمقادير العلماء الأفاضل، توفي سنة 1040هـ/1630م. (دحلان؛ أمراء البلد الحرام، ص100).

(85) (الشرفي: اللآلئ، ج1، ق528 - 532).

ونتيجة لتلك الأحداث فقد استجار الشريف محسن بالإمام المؤيد محمد بن القاسم فأمدّه وبادر بإرسال صفي الدين أحمد بن محمد لقمان⁽⁸⁶⁾ في محطة عظيمة، والشيخ أحمد ناصر المحبشي والفقير محمد بن علي الأكوغ، والسيد مطهر بن ناصر الحمزي، وأمدهم بالسلاح والخيل وساروا إلى مدينة الليث وهناك تم الإصلاح بين الأهالي حتى وصلوا بلاد الشقيق وبلاد حلي بن يعقوب⁽⁸⁷⁾.

واستمر الصراع قائماً بين الشريف محسن والشريف أحمد بن عبدالمطلب، حتى هُزم الشريف محسن، فغادر الحجاز مغاضباً إلى اليمن، ووصل إلى مقر إقامة الإمام المؤيد محمد في (أقر) يطلب العون، لكن الإمام عجز عن تلبية طلبه نتيجة لإنشغال الدولة في ميادين قتال العثمانيين في اليمن.

وقد طلب الشريف محسن أن يسير معه أحد أخويه الحسن أو الحسين ليكونا عوناً له في ذلك النزاع لكن الإمام عرض عليه أن يرحل إلى صنعاء لصيام شهر رمضان، فعزم على السفر حتى وصل إلى وادي غربان شمال صنعاء وهاجمه المرض في بلاد غشيم وتوفي هناك، ثم حُمل إلى صنعاء ودفن في قبة بالقرب من باب السبحة بالقرب من أحد أبواب صنعاء القديمة⁽⁸⁸⁾.

وقد سبق للإمام المؤيد محمد أن كتب برسالة للشريف أحمد بن عبدالمطلب الذي استلم الشرافة بناءً على تعيين من السلطنة العثمانية، وضح في مضمونها رغبته في عقد الصلح مع الشريف محسن بن حسن، وتعهد الإمام تذكيره بفضلهما ونسبيهما الشريف وأن عليهم نصرة الحق ورفع كلمة الله في أرض الحرمين والتصدي لمن يحاول أن يهتك الحرم، وهما أجدر بكل تلك الأعمال بما يربطهم من الأخوة والائتلاف وعدم مسايرة الأعداء⁽⁸⁹⁾.

ولا حظنا تدخل المؤيد محمد في حوادث الخلافات والتنافس بين الأشراف في مكة حول السلطة والحكم، ولجوء بعض الأشراف إلى اليمن نتيجة لعوامل القوة والنفوذ، وقد حرص المؤيد محمد على فرضها وإصلاح ذات البين في ذلك الصراع.

اتسعت رقعة الدولة القاسمية بعد خروج العثمانيين من اليمن، واستقرت الأوضاع الداخلية وبسطت الدولة نفوذها حتى نجران ونواحيها، الأمر الذي جعل المؤيد محمد ومن بعده المتوكل إسماعيل أن يتطلع كل منهما إلى مد نفوذه نحو بلاد الحجاز مزهواً بنشوة الانتصار ضد العثمانيين.

وتشير المصادر التاريخية أن الإمام كان يرغب أن يذكر اسمه على منابر الحرمين الشريفين، وقد تعززت رغبته تلك بشكل خاص حين طلب الشريف زيد بن محسن شريف مكة (ت 1077هـ/1666م) في رسالة بعثها للمؤيد محمد أن يرسل إليه أحد الشخصيات العلمية المرموقة (ليزين به صدر مجلسه) تعبيراً عن العلاقة الودية بين الشريف والإمام، فبعث الإمام الفقيه محمد بن علي الجمولي⁽⁹⁰⁾ لأداء تلك المهمة.

(86) صفي الدين أحمد بن محمد بن لقمان: هو المحقق العلامة من أعلام دولة الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم، كان له باع في العلم، كان يلقي دروسه في جامع شهارة، أرسله الإمام المؤيد إلى الطويلة في زمن الحرب ضد العثمانيين ثم أرسله إلى الليث، ثم إلى مكة المكرمة بطلب من الشريف زيد بن محسن، توفي سنة 1039 هـ في قلعة رازح في صعدة. (ابن عامر؛ بغية المرید، ص 159).

(87) (الجرموزي: الجوهرة، ق 726).

(88) (الجرموزي: الجوهرة، ص 728)؛ (الشرفي: اللآلئ، ج 3، ق 566)؛ (الضمدي: العقيق اليماني، ق 412)؛ (عيسى بن لطف الله: روح الروح، ج 3، ق 37).

(89) (الجرموزي: الجوهرة، ص 716 - 718).

(90) الفقيه محمد بن علي الجمولي: من قادة الإمام المؤيد محمد بن القاسم، حمل رسالة من الإمام إلى مكة المكرمة، وتوجه باستدعاء من الشريف زيد بن محسن وكما قيل وقد تشوق إلى العلم وأهله. (الجرموزي؛ الجوهرة المنيرة، تحقيق: أمة الملك الثور، ص 1170).

وقد علق المؤرخ يحيى بن الحسين على ذلك، وتطلعه لمد النفوذ إلى الحجاز أمر مستحيل تحقيقه في ظل تبعية الحجاز آنذاك للسلطنة العثمانية، ومن غير الممكن أن يسمح العثمانيون بذكر اسم المؤيد محمد في الحرمين الشريفين، لا سيما مع وجود علاقة ودية بين الأشراف وأئمة اليمن، وتطلع الطرفان لتوحيد الجهود في وجه القوى العثمانية في المنطقة.

وكان طلب الشريف زيد إرسال شخصية علمية من قبيل مجارة الإمام في رغبته وحرصه على استمرار العلاقة بين الطرفين⁽⁹¹⁾.

وأيضاً كان للحسن بن القاسم وهو القائد الأول في انتصارات القاسميين ضد الدولة العثمانية تطلعات وطموح تمثل ذلك في ضم الحجاز لليمن خاصة وقد نعمت اليمن بالإستقلال بعد خروج العثمانيين منها، ووفدت إليه العديد من القبائل المؤيدة لإستقلال البلاد من قبائل المشرق ومن الشمال ومن قبائل قحطان وشهران، وعرضت عليه نجائب خيولها، فاشترها منهم وأحسن وفادتهم وتفاوض معهم على أن يقدموا له العون والمشاركة من أجل تحقيق بعض تطلعاته المستقبلية ومنها فتح بلاد الحجاز بدسب قول المؤرخ الجرهموزي: "وبدا يستعد لذلك فجمع الخيول وفرقها على القبائل للعلافة، وأصلح الآلات والمعدات المساعدة له، وشجع حياكة الكسا والأثواب المناسبة، لكن الأجل عاجله ولم يتمكن من تحقيق ذلك الحلم"⁽⁹²⁾.

كانت بلاد الحجاز تمر بظروف عدم الاستقرار، وظلت مكة معرضة لسلسلة من الفتن والفوضى بين الأشراف يعز حصرها وتعدادها ولم يقر لها قرار إلا في فترات قصيرة في عهد الشريف بركات وابنه أبو نمي الثاني وحفيده حسن وهو عهد قصير لا يزيد عن ثمانين سنة⁽⁹³⁾، فالصراع بين الأشراف كان من أجل الإنتقام من الخصوم في مكة، حيث كانت القبائل تستغل تلك الأوضاع وتقوم بالإغارة على القرى، وكان من أطراف الصراع أشراف القطبي (عز الدين القطبي) ضد الشريف أحمد بن غالب، والتي انتهت بمغادرة أحمد بن غالب إلى استانبول⁽⁹⁴⁾.

كثيراً ما لجأ الأشراف إلى اليمن في حوادث متكررة مع فرض العثمانيون لسطوتهم على الحجاز، ففي سنة 1079هـ / 1668م رحل الشريف أحمد بن باز المكي عن طريق البحر راجياً في النفوذ إلى السلطان العثماني عن طريق مصر، فرده الوالي العثماني في مصر وقال له: "أرجع من حيث جئت إلى عند سعد بن زيد" فأنفت نفسه وتحول إلى اليمن، ووصل إلى صنعاء وهو متأثر بالمرض حتى توفاه الله عقيب وصوله، وقبر بجانب قبر الشريف محسن بقبة باب السبحة⁽⁹⁵⁾.

وفي عصر المتوكل إسماعيل بن القاسم أرسل الكتب إلى أحمد بن الحسن قائده العسكري لاستشارته حول تقديم العون للشريف سعد بن زيد في صراعه ضد السلطة العثمانية وبقية الأشراف المنافسين له في الحكم، ويتم الإستيلاء على الحرمين وخلع حكم السلطان منها، لكن أحمد بن الحسن أضرب من هذا بالكلية ونصح الإمام بالاستئغال بما هو أزم وأهم، ووصل للإمام المتوكل كتاب من شخص يسمى محمد

(91) (الصفواني: موقف العلماء، ص345).

(92) (الجرهموزي: الجوهرة، تحقيق أمة الملك الثور، ص131).

(93) (العمرى: يمانيات، ج3، ص159).

(94) (البهكلي: خلاصة المسجد، ص52).

(95) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، تحقيق د.أمة الملك الثور، ج2، ص709).

شاوش ذكر فيه رجوع حاج اليمن لذاك الموسم، وحذر من تقديم العون للشريف، فلا فائدة من تقديم العون والمساعدة للشريف والرأي عدم الإلتفات إليه والمباعدة لأن ذلك التصرف يؤدي إلى الحرب من السلطان والتجهيز ضد اليمن، وقال: "الرجل مرفوع خبره متبوع أثره وعليه عدة عيون، والجناب فيما بينكم وبين السلطان مصون"⁽⁹⁶⁾. والملاحظ أن الكتاب كان يحذر الإمام بعدم التدخل وأن لا يقدم العون والمساعدة للشريف لما بينه وبين السلطنة من مشاكل وإحن.

وقد سبق أن وصل الآغا شعبان وزير الشريف سعد بن زيد⁽⁹⁷⁾ هارباً إلى اليمن وبصحبه قدر أربعين نفر من العسكر، وقد سلبهم قبائل الحرامية بعض أسلحتهم، فأحسن إليهم الإمام وقابلهم بالإنعام والإكرام⁽⁹⁸⁾.

أما الشريف سعد بن زيد فقد هرب إلى الطائف ودبر أمره خوفاً من بطش الأتراك، وتم تعيين الشريف بركات لولاية الحرمين الشريفين وذلك في سنة 1083هـ/ 1671م⁽⁹⁹⁾.

أما الوجه الآخر من العلاقة التي ربطت بين الأشراف وبين أئمة الدولة القاسمية تمثل في تناقل الأخبار حول أحوال موسم الحج والأوضاع السياسية في الحجاز وتبادل الآراء والمنافع التي تهم جميع الأطراف، بدأت المراسلات وتناقل الأخبار بين الأشراف والقاسميين منذ أيام الحروب الأولى التي كانت قائمة بين العثمانيين والإمام المؤيد محمد وأخوته.

فقد وصلت للمؤيد محمد بن القاسم رسائل من الشريف مسعود بن إدريس يورد فيها أخبار وأحوال سكان بيت الله الحرام، وسقوط الأمطار الغزيرة وانهدام جزء من بيت الله الحرام، وذكر انشغاله بإعادة عمارة أركان المسجد الحرام ورفع قواعده، كان رد المؤيد محمد بأن أورد أخبار المعارك في تهامة ونجد المخيرب ونجد قسيم في الفترة التي خاضها الجيش ضد القوات العثمانية، ثم أورد أخبار معركة مدينة المخاء، وتوالي هزائم العثمانيين في تلك المواجهات، وقد حرص الإمام على التوضيح للشريف سبب مشاركة الشريف زيد بن محسن في تلك الحرب، بأنه عوناً للإمام ومراعاةً لجانب الأخوة وصادق المحبة، ويأمل أن يتم الاتفاق بين الأشراف واجتماع كلمتهم مع أخوتهم وبني عمومته من أشراف مكة⁽¹⁰⁰⁾.

ويأمل أن يفي الشريف بوعدته لأخيه الشريف زيد بن محسن بأن تجتمع كلمتهم على إتقاء الحوادث التي كشفت أقنعة القلوب ولا موجب لها سوى انتهاك العثمانيين لحرم بيت الله.

وفي رسالة الشريف مسعود بن إدريس يعاود إرسال أخبار مكة ومنها حين وقع مطر غزير في مكة ونواحيها يوم الأربعاء تاسع عشر من شهر شعبان لسنة 1039هـ/ 1629م ودخلت السيول إلى المسجد الحرام⁽¹⁰¹⁾.

(96) (أبو طالب: طيب أهل الكساء، تحقيق الحبشي، ص130).

(97) الشريف سعد بن زيد: تولى الشرافة سنة 1077هـ/ 1666م، وعزل سنة 1082هـ عن ولايته الأولى ورحل إلى البلاد الرومية بصحبة أخيه أحمد. وقد تولى الشرافة أربع مرات. (دحلان، أمراء البلاد الحرام، ص112، 124).

(98) (أبو طالب: طيب أهل الكساء، ص130).

(99) (نفسه، ص159).

(100) (الجرموزي: الجوهرة، ج2، ص788 - 790).

(101) (الشرفي: اللآلئ، ج3، ق604).

وبالمثل كان المؤيد محمد حريصاً على إرسال ما سماه بالبشارة إلى أشرف مكة المشرفة بأخبار انتصارات جيشه على العثمانيين واستيلاء الجنود على ما في المحطة من المغنم الواسعة والسلاح العظيم على اختلاف أنواعه⁽¹⁰²⁾.

وقد اهتم المؤيد محمد بإرسال الوقفية التي وصلت إليه من مصر لإيصالها إلى بلاد الحرمين، وهي عبارة شيء من الزيت والقناديل المختصة بالمسجد الحرام والمسجد النبوي، وتم إرسالها إلى السيد الهادي بن صلاح النعمي حاكم بندر اللحية وبدوره يرسلها إلى الحرمين الشريفين⁽¹⁰³⁾.

وقد أورد المؤرخون اليمنيون أخبار مواسم الحج خاصة مع اهتمام أئمة الدولة القاسمية بالإحتفاء والإعداد لهذا الموسم، في كل سنة، ومنذ السنوات الأولى لتولي المتوكل إسماعيل زمام الإمامة أظهر حرصه على مكاتبة أشرف مكة والتوضيح لهم بدوام إقبال حجاج بيت الله الحرام، حيث تبادل المتوكل إسماعيل الرسائل مع أشرف مكة في فترات حكمه، واختلاف تولي الأشرف في مكة، وقد حاول المتوكل إظهار النصيحة الأخوية بقوله: "أردنا بذلك الإعتذار إلى الله عزوجل وإلئكم بما أمكن من النصيحة التي هي أقل حق للمسلم على المسلم وأقامها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقام النصر الحقيقية"⁽¹⁰⁴⁾.

أما أخبار مكة وصراع الأشرف ومناصرة بعضهم على بعض وغيرها من الأخبار، ففي سنة 1064هـ/ 1653م أورد المؤرخ الجرهموزي في سياق اهتمامه بأحداث بيت الله الحرام وتسجيل ما يصله من أخبارها ومنها مراسلات الشريف زيد بن محسن للمتوكل بشأن الصلح مع الأشرف⁽¹⁰⁵⁾.

وأورد المؤرخون أخبار محمل الحج اليماني وأمرائه منها في سنة 1068هـ سجل خبر وفاة أمير الحاج (سرور) الذي اصطحب قافلة الحج وكان أميراً عليها كالمعتاد، لكنه توفي بعد أداء فريضة الحج واستيفاء المناسك⁽¹⁰⁶⁾.

وفي سنوات متتالية وردت أخبار متفرقة عن رحلات قافلة الحج اليماني، ومدى اهتمام أئمة البيت القاسمي برعايتها وتجهيزها وتعيين أميراً عليها، وحرصوا على ذكر أخبار مكة وسير رحلة الحجاج في كل موسم من مواسم رحلاتهم الدينية تلك.

سجل المؤرخ اليمني أخبار الحجاج وحوادثهم وأحوال معيشتهم، ومدى اهتمام رجال الدولة بهذا المحمل، وما هي الأخطار التي يتعرض لها الحجاج، وتعيين العساكر والجنود للحماية من تعرض قوافل الحجاج للحرايمية ورجال القبائل⁽¹⁰⁷⁾.

وأورد المؤرخون أخبار حوادث الفوضى وقتل الباشوات العثمانيين في مكة المكرمة، منها قتل الباشا العثماني عند رمي الجمرات، وقد تم التواص بين حجاج اليمن كي يحفظوا أنفسهم وأجنادهم من تلك الفوضى واضطرابات أحوال مكة، وبطل البيع

(102) (الجرهموزي: الجوهرة، ص 521).

(103) (نفسه، ج 2، ص 738).

(104) (الجرهموزي: تحفة الاسماع والأبصار، ج 1، ص 176).

(105) (نفسه، ص 312).

(106) (أبو طالب: طيب أهل الكساء، ص 75).

(107) ((المزيد يمكن الرجوع إلى: (أبو طالب: طيب أهل الكساء، ص 81، 97، 103)؛ (أمة الغفور الأمير: التطورات السياسية في اليمن، ج 2، ص 611، 621، 675، 683، 728)).

والشراء، وخدمت الحركة، وانقطع ما بينها وبين جدة، ثم سمح لحاج اليمن بالإنصراف والعودة⁽¹⁰⁸⁾.

وقد ورد في المصادر المعاصرة أن أئمة الدولة القاسمية حرصوا على إرسال الدراهم إلى أشرف مكة لتوزيعها على الأشراف وفقراء مساكين الحرمين⁽¹⁰⁹⁾. ولم تستمر تلك العلاقات بين الأشراف وأئمة الدولة القاسمية مع تولي الإمامة أبناء الجيل الثاني من القاسميين، وقد انشغل هؤلاء بالصراعات القبلية، وظهور مراكز القوى في كل أقاليم اليمن خاصة الشمالية، وتعددت الدعوات الإمامية في تلك المرحلة من تاريخ الدولة القاسمية.

ولم يرد في المصادر التاريخية اللاحقة وهو عصر – الجيل الثاني من أبناء القاسم – أي اهتمام رسمي من قبل الدولة بالإعداد والإشراف على محمل الحج في المواسم السنوية أسوة بأبائهم من أئمة الدولة القاسمية الأوائل، بل انشغلوا بالتنافسات والحروب فيما بينهم حول الدعوات المتعددة على منصب الإمامة، وانحصر موسم الحج على رحلات خاصة واهتمام ضعيف من قبل هؤلاء الأئمة. تم في العرض السابق توضيح وتسجيل العلاقات القاسمية المكية من خلال الأشراف، ووجودهم على هرم الأحداث في تلك الفترة، وتم توضيح تلك العلاقة وأبعادها ونتائجها من خلال المصادر اليمنية المتنوعة.

(108) (أبو طالب: طيب أهل الكساء، ص124).
 (109) (يحيى بن الحسين: البهجة، ج2، ص814).

ثالثاً: الدور الثقافي والإجتماعي الذي ربط بين مكة واليمن في هذه المرحلة من تاريخ اليمن. حرص كُتاب ومؤرخي اليمن على تدوين أخبار الحجاز الاجتماعية والثقافية، واهتموا بتدوين تراجم بعض العلماء الذي عاصروهم وذكرهم عند وفاتهم بترجمات طويلة وأخبار مفيدة.

كانت أخبار مكة والمدينة محل إهتمام علماء ومؤرخي اليمن وتم تناقلها عبر الرحالة والتجار وطلبة العلم والمتنقلين بين البلدين، وذلك حرصاً على توطيد أواصر ربط المجتمع العربي الإسلامي بالعلاقة الاجتماعية السائدة حينذاك، حيث كانت العلاقات الاجتماعية والثقافية بين المجتمع العربي أقوى من العلاقات السياسية، وبطبيعة الحال فقد نشأت علاقة قوية تربط بين المدن المقدسة في الحجاز وبين اليمن بسبب الجوار الجغرافي وصلات القربى بين أئمة اليمن وأشرف الحجاز الهاشميين إلى جانب النشاط التجاري بين البلدين.

ولا نغفل وجود كثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التي تتشابه إلى حد ما بين المجتمع الحجازي والمجتمع اليمني.

كان الأشرف في مكة يبدون كثيراً من الصلات الودية مع أئمة اليمن، بالرغم من وجود بعض المخاوف من العثمانيين الذين يحكمون الحجاز، والحذر من إظهار الإنضمام العلني إلى أئمة الدولة القاسمية لتجنب الغضب العثماني.

وقد وجد بعض الأمراء من أسرة آل القاسم الذين كان عليهم مغادرة اليمن نتيجة للصراعات العائلية كل مودة وترحيب من أشرف مكة، وهذا الترحيب والاستقبال الودي كان يقابله ترحيب مماثل لبعض الأشرف الملتجئين إلى اليمن، ولكن وبالرغم من كل الإعتبارات، نجد أن الأشرف في بعض مواسم الحج يداخلهم الخوف والرهبة من الحكام العثمانيين في الحجاز، فيخفون تعاطفهم أو انضمامهم العلني لأسرة آل القاسم في اليمن.

ومثال ذلك ما حدث في عهد الإمام المتوكل إسماعيل سنة 1083هـ/1672م، حين تعمد الشريف إرجاع الحجاج اليمينيون القادمون لأداء فريضة الحج، لتجنب غضب العثمانيين في تلك الفترة، بالرغم من قوة الدولة القاسمية في عهد المتوكل إسماعيل وعلاقته المتينة بإشراف الحجاز لكن العثمانيين كانوا يشددون على عدم ظهور حجاج اليمن في المشاعر المقدسة، وبما يحملون من مظاهر عسكرية قوية⁽¹¹⁰⁾.

تعددت أوجه العلاقة الاجتماعية والثقافية بين الأشرف في الحجاز وبين اليمانيين في عهد الدولة القاسمية وبما يتناسب ومجال اهتمام المجتمعات في ذلك الحين.

كانت أخبار تقلبات أحوال الأشرف في الحجاز وتنافساتهم محط اهتمام الكتاب اليمانيين ويتلوهما في الأهمية متابعة الأوضاع المناسبة التي تمكن اليمانيين المتدينين من استمرار رحلة الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي محمد صلّى الله عليه وآله وسلم في المدينة المشرفة مع شرط وجو الأجواء الآمنة والمناسبة لتلك الزيارات أو أثناء إقامة الشعائر الدينية المقدسة.

ظهر ذلك جلياً مع بداية القرن 11هـ/17م، فقد كان الأشرف هم الواجهة الدينية والثقافية التي يناط إليهم بحكم وتسيير أمور الحجاز تحت إشراف وحكم السلطان

(110) (سنوك هور خروفيه: صفحات من تاريخ مكة، مج1، ص254).

العثماني، ولكن المنافسات والصراعات بين الأشراف أوجد وأظهر الضعف والتهاون بين هؤلاء على طمع البعض واستيلاء وتحكم البعض الآخر للحكم، مما أدى إلى تخلخل الحياة الاجتماعية والثقافية في المجتمع الحجازي.

كان اليمينيون يرون في الحجاز وما يقام على أراضيه من نشاط ثقافي واجتماعي جزء مكمل للحراك الاجتماعي والثقافي في اليمن، وتعددت أوجه ذلك الاهتمام منها التجارة وهجرة طلبة العلم إلى بيت الله الحرام، يقابله زيارة وهجرات لهجر العلم في اليمن، وتبادل الكتب والمنافع الثقافية بين البلدين ناهيك عن الحرص الإمامي على توثيق العلاقة الاجتماعية بنظرائهم من أشراف وحكام الحجاز.

سيتم عرض لبعض الأخبار التي حرص مؤرخي اليمن على تدوينها، وتتبعها ثقافياً واجتماعياً، وسرد نتائجها وانعكاساتها على زوار الحرمين الشريفين.

فقد ورد خبر وفاة الشريف الحسن بن محمد بن أبي نمي وتم سرد سيرة حياته أثناء ولاية والده، وحين تسلم الأشراف، وأطنب في وصف سيرة حياته الحسنة حتى آخر زمانه، وذكر بأنه كان يسير بين يدي والده الأمير أبي نمي بن بركات من جملة العساكر ولا يتميز عنهم⁽¹¹¹⁾.

ثم ذكر الفتنة التي وقعت بين الشريفين إدريس وابن أخيه محسن حتى تم إخراجه من مكة وتولي الشريف محسن منصب الشرافة ونفذ كلمته في الحرمين الشريفين وسائر البلدان، ثم ذكر رحيل الشريف إدريس إلى بلاد قبائل شمر حيث توفي هناك⁽¹¹²⁾.

وتتوالى تداول الأخبار إلى اليمن عن طريق الرحالة في زمن المؤيد محمد بن القاسم عن الصراع الفارسي والدولة العثمانية في حلب، وشرح الحروب والانتصارات بين الطرفين، وتناول المصاعب التي عانى منها الأهالي جراء تلك الحروب⁽¹¹³⁾.

وقد تم ملاحظة أن الأحداث الداخلية في الحجاز كانت تحظى باهتمام كبير من قبل الكتاب اليمنيين، ويتم متابعتها بكل تفاصيلها ومن مصادر عديدة - وكما سبق أن ذكرنا - لم تغفل المصادر سرد حادثة غرق سفينة الباشا أحمد سنة 1037هـ ومحاولة استنقاذ أمواله ومتاعه، وفشل الغواصون في تلك المهمة، فانتقم الباشا بعزل الشريف محسن الذي بدوره رحل إلى اليمن وتم اسناد منصب الشرافة للشريف أحمد بن عبدالمطلب⁽¹¹⁴⁾.

ذكر المؤرخون في سنة 1039هـ/1629م أن قانصوه باشا قبل وصوله إلى اليمن، تم تكليفه من قبل السلطنة بأن يعمل على إصلاح ولاية الحجاز وإخماد الفتنة القائمة في عهد الشريف أحمد بن عبدالمطلب، فقتل الشريف وتم تعيين الشريف مسعود بن إدريس الشرافة، وكان لهذه الإجراءات صدى واسع لدى الأهالي في الحجاز⁽¹¹⁵⁾.

وقد تابع المؤرخون أخبار تولي وعزل الأشراف في الحجاز نتيجة للصراع بينهم حول منصب الشرافة، مع ذكر أخبار الحجاز وعلاقتها بالسلطنة العثمانية، وتدخل

(111) (الضمدي: العقيق اليماني، ق396).

(112) (نفسه، ق409).

(113) (الشرفي: اللآلي المضيئة، ج3، ق509).

(114) (الضمدي: العقيق اليماني، ق411؛ الشرفي: اللآلي، ج3، ق528).

(115) (الضمدي: العقيق اليماني، ق414).

الوالي العثماني في دائرة ذلك الصراع، ولم يغفل المؤرخون ذكر أخبار الوفيات وسرد سيرة عن حياتهم وأحوالهم السياسية مع أقرانهم من الأشراف⁽¹¹⁶⁾.
تقرب الأشراف من أئمة الدولة القاسمية من خلال الرسائل التي جرى تبادلها بين الطرفين للإطلاع على الأوضاع وطلباً للنصح والمشورة، فقد بعث الشريف زيد بن محسن عام 1054هـ/1644م، رسالة وضح فيها النزاع بينه وبين أبناء عمه الشريف عبدالعزيز بن إدريس ومجموعة من الأشراف على منصب الشرافة، ويطلب المشورة فيما ينبغي عمله مع هؤلاء من أجل إدخالهم في طاعته، فرد عليه الإمام بجواب طويل تضمن الحرص على جمع الكلمة ومنع الفرقة، ويرد الألفه، ويحرس الشرف "وإن شق فإن التكاليف كلها شاقة" وكظم الغيظ وصلة الرحم وحفظ الجماعة إلى آخر الرسالة⁽¹¹⁷⁾.

ومن الأخبار التي ذكرها المؤرخ يحيى بن الحسين في سنة 1644هـ تواصل الإمام المؤيد محمد مع الشريف زيد بن محسن في شأن الإعتزاء إليه في الخطبة، وكان رد الشريف أن يرسل من الفقهاء من يثق به، فتم إرسال الفقيه محمد بن علي الجمولي، وركب البحر حتى وصل جدة فوصلت الأخبار بوفاة المؤيد محمد فعاد من جدة⁽¹¹⁸⁾.
ولم يغفل المؤرخون نقل الأخبار التي كانت تصلهم عن صراع الأشراف مع الدولة حول منصب الشرافة، منها دخول الشريف حمود في حرب ضد جنود السلطنة في الحجاز واستولى على الأموال والنخائر، وتتابع الأحداث بين الطرفين حتى انتهت بقتل الباشا العثماني وهو يرمي الجمرات، وقامت فتنة كبيرة وقتل عدد كبير من الحجاج، وهرب البعض الآخر، وحدثت فتنة كبيرة بين الناس بسبب تلك الأحداث⁽¹¹⁹⁾.

وتتواصل أخبار الصراعات بين رجال الدولة العثمانية وبعض الأشراف، فقد أرسل الشريف سعد بن زيد إلى الإمام المتوكل إسماعيل يطلب العون والمساعدة، ولكن الإمام بعد التشاور مع قائده أحمد بن الحسن وولده محمد بن إسماعيل فأشار عليه بأن حدوث تلك الفتنة سببها قتل الوالي في مشاعر مكة المكرمة، فراجع عن ذلك⁽¹²⁰⁾.

وتم أيضاً تداول ومتابعة أخبار الأوضاع المناخية في مكة ومنها ورود أخبار الأمطار والسيول التي هطلت في بيت الله الحرام، وهطول أمطار غزيرة خالف المعتاد في غزارته حتى هبط السيل إلى جانب المسعى وبين المسجد والصفاء وغمر السيل المسجد وبيوت كثيرة بجانبه⁽¹²¹⁾.

كانت الدولة القاسمية حريصة على إرسال الصّر السنوي إلى الحرمين الشريفين، وكان مقدار الصّر المرسل يظهر مدى قوة الدولة القاسمية أو ضعفها، ففي عهد المتوكل إسماعيل بن القاسم تم إرسال الصّر السنوي ومهتماً بإيصاله إلى الأشراف وللصدقة على الفقراء والمساكين، وفي بعض المواسم كان يتعثر إرسال الصّر إلى

(116) الشرفي: اللالي المضينة، ج3، ق607؛ الضمدي: العقيق اليماني، ق424؛ يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص672؛ أبو طالب: طيب أهل الكساء، ص98، 99.

(117) الجرزموزي: تحفة الأسماع، ج1، ص326.

(118) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج1، ص425.

(119) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص775، 778؛ أبو طالب: طيب أهل الكساء، ص116.

(120) يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص800.

(121) الجرزموزي: الجوهرة، ج2، ص786؛ الضمدي: العقيق، ق415.

الحجاز، فكان الشريف يبعث إلى أئمة اليمن مطالباً السداد فقد أصبح ذلك تقليداً و عرفاً لا يمكن إغفاله.

وفي مواسم أخرى كان أئمة الدولة القاسمية يقومون بإرسال النقود والهدايا العينية للأشراف، منها حين أرسل المؤيد محمد بن إسماعيل هدية عينية زيادة على المعتاد من الدراهم وثلاثة جياذ وثلاثة سيوف هندية مميزة إلى جنب الصّر السنوي⁽¹²²⁾. وبالرغم من عزل الشريف سعد بن زيد إلا أن العلاقة الشخصية مع أئمة الدولة القاسمية ظلت متواصلة فقد أرسل الإمام المتوكل سنة 1083هـ/1672م الصّدقة التي وصلت إليه من الهند، وتم إرسالها إلى الشريف حيث كان مستقراً في بيشة لِنفاذ ما بيده وضيق المعيشة حين فضل العزلة بعيداً عن صراع الأتراك واتقاء لشركهم كما ذكر⁽¹²³⁾.

ومن أوجه تطور العلاقات بين الطرفين، أن أشراف الحجاز رفعوا رسوم الوارد من البن على تجار اليمن، فقام الإمام وأصدر أمراً بمنع تصدير البن إلى الحجاز ومنع تداوله، لكن الشريف تراجع عن قراره وأرسل مبعوثاً للتهدئة والطلب بعودة تجار البن بمزاولة تجارتهم في الحجاز⁽¹²⁴⁾.

حرص مؤرخي اليمن على تدوين أخبار وتراجم علماء مكة، وتسجيل تاريخ وفاتهم، منها في السنة الحادية عشر بعد الألف (1011هـ/1602م)، ورد ذكر وفاة الشيخ العلامة نور الدين علي بن جار الله بن محمد بن ظهيره الطهيري القرشي الحنفي المكي، كان إماماً جليلاً أنتهت إليه رئاسة الفتوى والتدريس على مذهب الحنفية بمكة المكرمة وكان إماماً في كل فن⁽¹²⁵⁾.

وفي سنة 1061هـ/1650م ورد خبر وفاة الشيخ محمد بن علي البكري المعروف بابن علان الشهير بمكة المشرفة كان من أوعية العلم وله مؤلفات وجمع كتباً يخرج حدّ حصرها من الصفة، منها (دليل الفاتحين شرح رياض الصالحين)⁽¹²⁶⁾. وفي سنة (1041هـ/1631م) توفي الشيخ الفاضل شمس الدين أحمد المزجاجي، نشأ في مدينة زبيد وأخذ فيها طرفاً من الفقه والعربية والأصول والمنطق، ثم أثر طريق التصوف، وذهب للحج وجاور في المدينة المنورة، وكان يلزم الحجاج ويصحب القوافل، ويقدم أعمال الخير لأهل اليمن ولم يزل على ذلك أربعين عاماً رحمت الله عليه⁽¹²⁷⁾.

ولم يغفل المؤرخ يحيى بن الحسين في سفره الكبير (بهجة الزمن⁽¹²⁸⁾)، وفي سنة (1072هـ/1661م) بأن أورد وفاة وسيّر لأسماء عديدة من العلماء والأعلام، منهم حين ذكر خبر وفاة السيد عبدالعزيز بن محمد بن عبدالعزيز الزمزمي من علماء مكة المحروسة، وقد كان سبق له زيارة اليمن، ثم ذكر وفاة السيد أحمد بن محمد بن يونس

(122) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج3، ص1301).

(123) (أبو طالب: طيب أهل الكساء، ص132).

(124) (سنوك هور خروفيه: صفحات من تاريخ مكة، مج2، ص270).

(125) (الضمدي: العقيق اليماني، ق398).

(126) (أبو طالب: طيب أهل الكساء، ص29).

(127) (الضمدي: العقيق اليماني، ق417).

(128) (تم تحقيقه من قبل الدكتورة أمة الغفور عبدالرحمن الأمير في كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان "الأوضاع السياسية في اليمن").

صفي الدين الدجاني القشاشي من علماء المدينة المنورة وأصله من القدس، صوفي مشارك في كل أنواع العلوم⁽¹²⁹⁾.

أما الفقيه صالح المقبل الثنائي الصنعاني الذي تلقى جل علومه في مدينة شبام كوكبان ثم رحل إلى صنعاء وفيها جرت بينه وبين رجالات عصره وعلماءها مناظرات مذهبية، أدت إلى اختلاف الآراء والمنافرة، لما اشتهر به من الحدة والتصميم على رأيه في طرح الأدلة والبعد عن التقليد المذهبي، فقرر الرحيل وباع أملاكه ورحل مع أهله إلى مكة المكرمة واستقر بها حتى وفاته سنة (1108هـ / 1728م)⁽¹³⁰⁾.

ومن الأعلام الذين حرص المؤرخون على ذكر خبره، وفاة الشيخ العارف زين العابدين بن عبدالقادر الطبري المكنى إمام مقام الشافعية بالحرم المكي سنة (1080هـ / 1669م) له معرفة بالأحاديث وله أسانيد عالية، ويُعد من العلماء الذين منح المؤرخ يحيى بن الحسين سنة 1074هـ، إجازة علمية في كل المرويات⁽¹³¹⁾.

ومن أوجه التبادل الثقافي بين اليمن ومكة تبادل وشراء الكتب الدينية وفي كل أوجه علوم الطلب في ذلك العصر، فقد خرج واشتهر من جهات مكة المكرمة إلى اليمن كتاب (فتح المتعال في مديح النعال المتشرفة بخير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، للعلامة الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني المغربي المالكي) وكتاب (ريحانة الألياء وزهرة الحياة الدنيا) تضمن تراجم علماء عصر المصنف في بلاد الشام ومصر والمغرب واليمن، للعلامة أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي المتوفى سنة 974هـ/⁽¹³²⁾

وقد سجل المؤرخون اليمنيون كتب ومؤلفات من أدب الرحلات وتخص رحلة الحج إلى بين الله الحرام لأداء فريضة الحج، وقد سجل ثلاثة من قضاة اليمن رحلاتهم تلك وهم؛ كتاب بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام وإلى المدينة المنورة لزيارة سيد الأنام، للسيد يحيى بن المطهر⁽¹³³⁾.

وللقاضي إسماعيل بن الحسين جغمان أرجوزة (بلوغ المرام في ذكر أحوال السفر إلى الحرم الأزهر والنبوي الأنور)، وكتاب (إنعام الإنعام في الرحلة إلى بيت الله الحرام" للقاضي عبدالملك بن محمد الأنسي⁽¹³⁴⁾.

كان للهجرات اليمنية إلى مكة المكرمة أهميتها لكثير من العلماء والشخصيات اليمنية، بغرض تلقي علوم الطلب ومجاورة علماء الحرمين الشريفين، أو هرباً من تقلبات السياسة والقمع المذهبي في عصرهم.

في سنة 1080هـ / 1669م قرر الشريف السيد علي حسن المكي الرجوع إلى بلاده، بعد أن مكث في صنعاء وعاش فيها حوالي عشرون سنة، وحين رغب في العودة إلى بلاده، أحسن الإمام أحمد بن الحسن من عطائه ومنحه الدراهم والجمال لحمل عتاده

(129) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص619).

(130) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص700؛ الشوكاني: البدر الطالع، تحقيق د. العمري، ص299).

(131) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج2، ص745).

(132) (نفسه، ص549).

(133) (نسخة محفوظة في دار المخطوطات بصنعاء).

(134) (البابكي: القضاة في عهد الدولة القاسمية، رسالة ماجستير غير منشورة، ص274).

وثقله، ورجع قافلاً إلى بلاده واستقر فيها، وبعد ثلاث سنوات قتل على يد ابن عم له (135).

ومن أوجه التعاون العلمي المتبادل بين اليمن ومكة المكرمة حين وجه الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم السيد العلامة محمد بن أحمد الشرفي أن يتوجه إلى مكة المكرمة للتدريس في بين الله الحرام، فدرس كتاب الغيث المدرار، وكتاب الأساس، والفصول اللؤلؤية وغيرها (136).

كان علماء اليمن في كل العصور يحرصون على أخذ إجازات علمية من علماء مكة المكرمة، إما بالمراسلة أو بالحضور والمقابلة، وتلك الإجازات (شهادات علمية) تُعد جزء مكمل للعلوم الدينية واللغوية التي يتلقاها طلاب العلم في مراحل تاريخية من عمره.

ودار المخطوطات بصنعاء تحتوي على مئات الرسائل في الإجازات العلمية المتبادلة بين العلماء في اليمن وخارجها، وقد تزينت كثيراً من المخطوطات اليمنية بملاحق هي عبارة عن إجازات علمية حرص أصحابها على نشرها لطلبة العلم ليتبين من خلالها الدرجة العلمية وأنواع العلوم التي تلقاها أصحاب هذه الإجازات ومن خلال التواصل مع علماء من أقطار عربية مختلفة، لكن كان لعلماء الحرمين الشريفين مكانة كبيرة في نفوس علماء اليمن، لما لهذا من شرف علمي يتباهى به كثيراً من طلبة العلم.

وسيتيم إيراد أمثلة لبعض الإجازات العلمية لعلماء في اليمن حرصوا على الحصول عليها من علماء مكة والمدينة ومنهم: حين مُنح العلامة حميد بن عبدالله الحنفي المدني إجازة علمية في رجب 1095 هـ/1683 م في المرويات الشرعية، والأحاديث الواردة للحضرة النبوية للعلامة المؤرخ يحيى بن الحسين بن القاسم المتوفي سنة 1100 هـ، ومنح العلامة خادم العلم الشريفة في الحرمين السيد محمد الطيب المغربي (ت 1170 هـ) إجازة علمية للقاضي أحمد بن عبدالرحمن الشامي وهو قاضي القضاة في دولة الإمام الحسين بن القاسم، وقد أجازته بعد إملاء صدره إلى انتهاء الأسانيد، وذكر منها عدد من كتب السنة منها سنن أبي داود والجامع للترمذي وغيرها.

وحصل العلامة أحمد بن محمد الهادي بن قاطن إجازة علمية عامة من العلامة عبدالقادر بن خليل المدني (ت 1189 هـ) بمحروس صنعاء.

ومنح العلامة محمد بن عبدالله الحربي العقيلي إجازة علمية في جميع المرويات المعقولة والمنقولة للعلامة إبراهيم المزجاجي، وهي إجازة علمية عامة.

أما العلامة عبدالرحمن بن علي بن فاضل الأنصاري العبادي الزبيدي (ت 1357 هـ) فقد حصل على إجازة علمية عامة مطلقة في كل مروياته من العلامة عمر بن حمدان المحرسي ومجموعة من مشائخ الحرمين الشريفين (137).

كان للهجرات اليمنية من اليمن إلى مكة وقع صدق وخبر تتناقله المراجع والمدونات اليمنية، وذلك لأهمية تلك الهجرات فهي كثيرة ومما وقع بين أيدينا وما ذكره بعض المؤرخين، فقد كان ولا يزال لمكة المكرمة مكانة دينية وعلمية كبيرة حرص كثيراً

(135) (يحيى بن الحسين: بهجة الزمن، ج 2، ص 743).

(136) (ابن عامر: بغية المرید، ص 162).

(137) (المكتبة الغربية: دار المخطوطات، صنعاء).

من العلماء والفقهاء على الرحيل إلى بيت الله الحرام للحج والمرابطة والإلتقاء بعلمائه، وتلقي شتى أنواع العلوم الدينية والفقهاء على أيديهم.

تردد على مكة المكرمة العلامة حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي بكر التقي الناشرى الزبيدي (ت سنة 926هـ)، وحصل على إجازة من السخاوي، وهو من علماء زبيد وكان ممن له ذكر وشهرة بين علماء عصره في زبيد وله إجازات عديدة من جهات متعددة⁽¹³⁸⁾.

والمؤرخ العلامة عبدالرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الديبوع (ت 944هـ/ 1536م) من أهم علماء عصره تلقى علوم الحساب والجبر والفرائض والعربية والفقهاء، وقد حج كثيراً وقرأ بمكة على السخاوي، له العديد من التصانيف في علم الحديث والتاريخ⁽¹³⁹⁾.

وقد حرص العلامة علي بن محمد العقبي الأنصاري التعزي الشافعي على الرحيل إلى مكة المكرمة مراراً لتلقي علوم عصره على يد العلامة بن علان وصنّف تصانيف عدة منها شرح ألفية بن مالك وشرح المدخل في المعاني والبيان، وشرح على زيد بن رسلان، وشرح منظومة يا شعب الإيمان، وشرح كتاب النخبة، وله حاشية على كتاب التيسير، توفي في مدينة تعز سنة 1101هـ/ 1690م.

ما طرح هي نماذج لعلماء يمنيون حرصوا على أخذ إجازات علمية من علماء معاصرين في مكة والمدينة المنورة، بالرغم من صعوبة التواصل في تلك الحقبة التاريخية، إلا أن الرحيل إلى بيت الله الحرام للحج والتشرف بلقاء علماء الحرمين كان من أولويات النهج العلمي لعلماء اليمن في تلك العصور.

(138) (الشوكاني: البدر الطالع، ص 249).

(139) (الشوكاني: البدر الطالع، ص 344).

قائمة المصادر

أولاً: المصادر المخطوطة:

- 1- أحمد بن محمد الشرفي: اللآلي المضيئة، ج3، مخطوط، (شخصي).
- 2- دار المخطوطات: مجموعة إجازات علمية ضمن محتويات مخطوطات متعددة، صنعاء.
- 3- عبدالله بن علي النعمان الضمدي: كتاب العقيق اليماني في أخبار المخلاف السليماني، مخطوط.
- 4- عيسى بن لطف الله بن المطهر بن شرف الدين: روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، ج3، مخطوط.

- 1- محمد بن إسماعيل الكبسي: اللطائف السننية في أخبار الممالك اليمنية، تحقيق: (أبو حسان) خالد أبا زيد الأذرعي، الطبعة الأولى، مكتبة الجيل الجديد، 1426، 2005م.
- 2- إسماعيل بن أحمد بن علي بن المتوكل: مختصر طيب أهل الكساء، تحقيق وجمع: عبدالله الحبشي (كتاب تاريخ اليمن، عصر الاستقلال عن الحكم العثماني الأول)، مطابع المفضل، 1411هـ/1990م.
- 3- عامر بن محمد بن عبدالله بن عامر الحسني: بغية المرید وأنس الفريد إلى معرفة انتساب ذرية السيد علي بن محمد بن علي بن الرشيد، تحقيق: عباس بن أحمد الخطيب المتوكل، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2010م.
- 4- محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: أ.د. حسين العمري، دار الفكر المعاصر، 1419هـ/1998م.
- 5- ك. سنوك هور خوفيه: صفحات من تاريخ مكة، مج 1.
- 6- الشريف أحمد ضياء بن محمد قللي العنقاوي: معجم أشرف الحجاز في بلاد الحرمين، مؤسسة الريان، ط 1، 1426هـ/2005م.
- 7- أ.د. حسين العمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، دار الفكر المعاصر، الطبعة الثانية، 2001م.
- 8- أ.د. حسين العمري: يمانيات في التاريخ والثقافة والسياسة، دار الفكر المعاصر، 2008م.
- 9- أ.د. حسين العمري: الأمراء العبيد والمماليك في اليمن "بحث تاريخي مقارنة بين الشرق والغرب حتى القرن العشرين"، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، 1409هـ/1989م.
- 10- عبدالرحمن البهكلي: خلاصة العسجد من حوادث دولة الشريف محمد بن أحمد، تحقيق: ميشيل توشيري و عدنان درويش، دمشق، 2000م.
- 11- رياض محمد الصفواني: موقف العلماء اليمنيين من سياسة أئمة الدولة القاسمية، 2015م.
- 12- مطهر بن محمد الجرموزي: تحفة الأسماع والأبصار مما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار، تحقيق: د. عبدالحكيم الهجري، جزءان، مؤسسة الإمام زيد - صنعاء، 2002م.
- 13- مطهر الجرموزي: الجوهرة المنيرة في جُمل من عيون السيرة، تحقيق ودراسة: أمة الملك إسماعيل قاسم الثور، ثلاثة أجزاء، مؤسسة الإمام زيد بن علي، صنعاء، الطبعة الأولى، 2008م.

- 14- يحيى بن الحسين بن القاسم: بهجة الزمن في تاريخ اليمن، دراسة وتحقيق: أمة الغفور عبدالرحمن الأمير، ثلاثة أجزاء، الطبعة الأولى، مؤسسة الإمام زيد، صنعاء، 2008م.
- 15- النقيب محمد صغير النقيب: قوافل الحج اليمني ومسالكه في عهد الدولة القاسمية، رسالة دكتوراة غير منشورة.
- 16- عبدالله البابكي: القضاء في عهد الدولة القاسمية، رسالة ماجستير غير منشورة.
- 17- إبراهيم أحمد المقحفي: معجم البلدان والقبائل اليمنية، جزءان، دار الكلمة، صنعاء، 2002م.
- 18- السيد أحمد ابن السيد زيني دحلان: أمراء البلد الحرام، الدار المتحدة للنشر.

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع	م
1	المقدمة.	1
3	التمهيد: اليمن في عهد الاستقلال الأول وحكم أئمة الدولة القاسمية، ودورهم في بناء الدولة القاسمية.	2
5	الدول اليمنية المستقلة.	3
5	الحسن بن القاسم.	4
7	الحسين بن القاسم.	5
9	أحمد بن القاسم.	6
9	المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم.	7
12	أولاً: رحلات الحج واهتمام حكام الدولة القاسمية بمحمل الحاج اليمني إلى مكة المكرمة، من خلال المصادر اليمنية المتنوعة.	9
23	ثانياً: علاقة الأشراف بأئمة الدولة القاسمية من خلال ما ورد في المخطوطات والمصادر المعاصرة.	10
33	ثالثاً: الدور الثقافي والإجتماعي الذي ربط بين مكة واليمن في هذه المرحلة من تاريخ اليمن.	11
43	قائمة المصادر: المصادر المخطوطة.	12
44	المصادر المطبوعة.	13
46	فهرس المطبوعات	14